سورة الأعراف

بسم الله الرحمن الرحيم

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ
لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم
مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ
﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْهُمْ
قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟
إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾
وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ ۚ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟
أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ
﴿١٠﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ
ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾

سورة الأعراف مكيّة وآياتها ستّ ومائتا آية.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

[٢] يخبر جل وعلا أنه أنزل هذا القرآن العظيم عليك يانبي الله فلا يكن في صدرك حرج في تبليغه؛ لتخويف الكفار وتذكير المؤمنين وتبشيرهم. وهذا الخطاب موجه لكل داعية من أمة محمد ﷺ؛ لأن الرسول ﷺ قد شمَّر عن ساعده ودعا ليلًا ونهارًا، سرًّا وجهارًا، ولم يُعرف أنه فتر أو تحرج منذ أن نزل قول الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر:١ - ٢].

[٣] ثم أمر جل وعلا الناس أن يتبعوا هذا القرآن العظيم الذي أُنزل إليهم من ربهم، وأمرهم أن لا يتخذوا غير الله وليًّا كالشياطين والأحبار والرهبان والأوثان، ولكن القليل من الناس من يتذكر ويتعظ بهذا القرآن.

[٤] واعلموا أيها الناس أن كثيرًا من القرىٰ أهلكها الله بسبب كفرهم وجحودهم وعدم استجابتهم لرسل الله؛ فكانت النتيجة أن جاءها عذاب الله مرة وهم نائمون ليلًا، ومرة أثناء استراحتهم نهارًا. ومعنىٰ هذا أنهم كانوا مغرقين في الغفلة، كما في قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

وقوله: ﴿وَكَم﴾ هنا تفيد التكثير، والفاء في قوله: ﴿فَجَآءَهَا﴾ تسمىٰ: (الفاء الفصيحة)، وهي التي تفصح عن أشياء كثيرة، وأيضًا تأتي للتفصيل بعد الإجمال.

[٥] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء الذين أهلكهم الله بسبب كفرهم وجحودهم ما كان دعاؤهم وتضرعهم عندما نزل بهم العذاب إلا أن أقروا علىٰ أنفسهم أنهم مشركون وظالمون، وأنهم يستحقون هذا العذاب؛ ولكن للأسف لن ينفعهم هذا الاعتراف.

[٦] ثم بين جل وعلا أنه سوف يسأل الأمم الذين أرسل إليهم الرسل توبيخًا وتقريعًا لهم: هل أجابوا الرسل؟ وهل عملوا بما بلغوه إليهم؟، وبين أيضًا سبحانه أنه سوف يسأل الرسل تأنيسًا لهم: هل بلَّغتم رسالة ربكم كما طُلب منكم؟.

[٧] ثم بين جل وعلا أنه سوف يخبر جميع الخلق بما عملوا في الدنيا بعلم منه سبحانه بأعمالهم، ثم بين أنه لم يكن غائبًا عن خلقه في أي وقت من الأوقات؛ بل كان شاهدًا ومطلعًا علىٰ أعمالهم.

[٨] ثم أخبر جل وعلا أن من مظاهر عدله مع عباده يوم القيامة أن صحائف أعمالهم توزن بميزان العدل؛ فمن ثقلت موازين أعماله بالحسنات؛ فأولئك هم الفائزون بالثواب والنعيم المقيم.

[٩] ثم أخبر جل وعلا أن من خفت موازين أعماله بالسيئات؛ فأولئك الذين حَرَمُوا أنفسهم ثواب الله وجنته بسبب ظلمهم وجحودهم لآيات الله واستهزائهم بها في الدنيا.

وهذا الحكم خاصٌّ بالذين ماتوا علىٰ الكفر، أما المؤمنون الذين ارتكبوا بعض الذنوب والمعاصي وقد حكم الله عليهم بدخول النار، فبعد عقابهم فإن مآلهم إلىٰ الجنة.

[١٠] واعلموا يابني آدم أن الله جل وعلا مكَّن لكم في الأرض، ويسر لكم فيها سبل العيش، ومكنكم من السكنىٰ والبناء والزراعة فيها لتأمين مصالحكم الدنيوية، ومع ذلك فإن أكثركم لا يشكرون الله إلا قليلًا.

[١١] ثم أخبر جل وعلا أنه أنعم علىٰ عباده بخلق أبي البشر آدم عليه السلام من العدم، ثم خلق علىٰ صورة آدم وهيئته ذريته، ثم أمر سبحانه الملائكة بالسجود له، فامتثلوا أمر ربهم، تكريمًا لآدم واعترافًا بفضله؛ حيث إن الله علَّمه ما لم يعلمهم، ونفخ فيه من روحه، وخلقه بيده؛ لأن الخلائق خلقت بكلمة (كن)، أما إبليس فقد رفض السجود لآدم حسدًا علىٰ تكريم الله لآدم وتعظيمه، وادعىٰ أنه أحق من آدم بالتكريم والتفضيل؛ لأنه خُلق من نار، وآدم خُلق من تراب.

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ
وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ
فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ
﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ
صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ
وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ
ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾ وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ
شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ
لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا ۚ وَقَالَ
مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ
أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾
فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا
يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن
تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾

[١٢] ثم أخبر جل وعلا أنه قال لإبليس علىٰ وجه الإنكار: ما الذي حملك علىٰ ترك السجود لآدم؟ مع أني قد أمرتك وكان واجبًا عليك طاعة أمري، فرد إبليس علىٰ الرب سبحانه، فقال: أنا أفضل منه لأنك خلقتني من نار وخلقت آدم من طين، فتبين من كلام إبليس أن الذي منعه من السجود هو الاستعلاء والكبر والحسد.

وهذه الآية صريحة في أن الله سبحانه وتعالىٰ أمر إبليس بالسجود لآدم بأمر خاصٍّ به؛ سواء كان مقترنًا بأمره للملائكة أو منفصلًا، واستثناؤه من السجود مع الملائكة لما أمروا لأن الأمر في وقت واحد للجميع، وذلك بعد أن سوَّىٰ الله آدم في صورته الحسنة، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:٤].

[١٣] وقال جل وعلا لإبليس: فاهبط من الجنة دار السلام، فليس لك أن تتكبر علىٰ أمر الله وطاعته؛ واخرج منها وأنت صاغرٌ ذليلٌ حقيرٌ.

[١٤] فقال إبليس لله جل وعلا: اتركني ولا تُمِتْني وأمهلني إلىٰ يوم القيامة؛ فالله سبحانه لحكمة بالغة من أجلها خلق الجنة والنار منحه البقاء إلىٰ قيام الساعة، أي: النفخة الأولىٰ يوم يموت الثقلان؛ لأنه ليس بعد البعث موت وإنما حساب ثم جنة أو نار، قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن:٢٦ - ٢٧].

[١٥] فقال جل وعلا لإبليس: فإنك من المؤخرين المؤجل موتهم.

[١٦] فقال إبليس لله جل وعلا: فبسبب ما أغويتني، أي: جعلتني مختارًا وقادرًا علىٰ رفض السجود، وأنت خالق نفسي وتعلم غروري وكبريائي؛ فسوف أجتهد في إغواء بني آدم عن الصراط المستقيم، وأبذل جهدي في صدهم عن الإسلام.

[١٧] ثم قال إبليس: وسوف آتينَّ آدم وذريته من كل الجهات، من الأمام والخلف، وعن اليمين والشمال؛ لأرغبهم في دنياهم، وأزين لهم الذنوب والمعاصي، ولن تجد أكثرهم شاكرين لنعمك.

[١٨] فقال جل وعلا لإبليس: اخرج من الجنة مذمومًا بكبرك وعصيانك، خاسرًا رضىٰ الله والجنة، ثم أقسم سبحانه أن من استجاب من بنىٰ آدم لإغواء إبليس فسوف يكونوا حطب جهنم أجمعين.

[١٩] ثم أمر جل وعلا آدم أن يسكن هو وزوجه حواء الجنة، وأن يأكلا من ثمارها حيث شاءوا، وحذرهما من أكل شجرة معينة حددها لهم جل علا؛ وأخبرهما إذا أكلا منها فإنهما من الظالمين المتجاوزين لحدود الله.

[٢٠] ولكن إبليس اللعين وسوس لهما لإيقاعهما في معصية الله، ولتكون عاقبة الأكل والوسوسة كشف عوراتهما وَنَزْع الستر عنهما؛ ثم قال إبليس لآدم وحواء: لقد نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة من أجل أن لا تكونا ملكين، ولا تكونا مخلدين في الجنة؛ لأن من يأكل منها يخلد فلا يموت.

[٢١] ثم قال إبليس لآدم وحواء: أقسم لكم بربي إني لكما لمن الناصحين المخلصين في النصح.

[٢٢] ثم أخبر جل وعلا أن آدم وحواء خُدِعُوا بنصح إبليس لهما فأكلا من الشجرة التي نهاهما الله عنها؛ فلما أكلا منها انكشفت عوراتهما بعد أن كانت مستورة فجعلا يأخذان من ورق الجنة ويضعانه علىٰ عوراتهما ليستر أنفسهما، ثم خاطبهما سبحانه معاتبًا وموبخًا لهما: ألم أنهكما عن الأكل من تلك الشجرة؟ وأحذركما من الشيطان، وأقل لكما: إن الشيطان عدوٌ ظاهر العداوة لكما، وإنه لا يخفي عداوته أبدًا.

والذي يظهر أن هذه الشجرة – التي أكل منها آدم وحواء – هي من أشجار الكرة الأرضية، وأنها بقدرة الله حملت خصائص شجر الأرض؛ لأن أشجار الجنة ليس لها فضلات؛ ومعلوم أنَّ أَكْلَ وشربَ أهل الجنة يخرج عرقًا، وفضلات هذه الشجرة من براز أو بول كشفت لهما عن عوراتهما؛ لأن مخرجي الفضلات الكريهة لم يكن لهما عمل سابقًا؛ فلما أكلا من هذه الشجرة خرجت منهما الفضلات القذرة فطفقا يَلْزِقان عليهما من ورق الجنة؛ لأنهما قبل أكل الشجرة لم يكونا سَوْأَتَيْن، فهما مثل الأذن والأنف؛ لكن بعد أن خرجت منهما الفضلات والروائح الكريهة أصبحتا عورتين.

وللمفسرين أقوال كثيرة في نوع هذه الشجرة، فمنهم من قال: إنها شجرة التفاح، ومنهم من قال: إنها القمح، وإلىٰ غير ذلك، والعلم عند الله.

قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ
مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣ قَالَ ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ
فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٢٤ قَالَ فِيهَا تَحۡيَوۡنَ وَفِيهَا
تَمُوتُونَ وَمِنۡهَا تُخۡرَجُونَ ٢٥ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ
لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ
ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ
ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا
لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ
حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ
٢٧ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا
بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ
٢٨ قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ
وَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَۚ كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ ٢٩
فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُۚ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ
ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ٣٠

[٢٣] ثم قال آدم وحواء: ربنا ظلمنا أنفسنا بمعصيتنا وأكلنا من الشجرة، وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الهالكين.

[٢٤] فقال جل وعلا لآدم وحواء وإبليس: انزلوا جميعًا من الجنة إلىٰ الأرض، وسوف يكون بعضكم لبعض عدو، ولكم في الأرض مكان تستقرون وتتمتعون فيه إلىٰ أجل مسمىٰ.

[٢٥] ثم قال جل وعلا: واعلموا جميعًا أنكم سوف تعيشون في هذه الأرض، وفيها تموتون، ثم تدفنون، ويوم القيامة سوف تبعثون منها.

[٢٦] ثم أخبر جل وعلا أنه خلق لبني آدم من اللباس ما يسترون به عوراتهم، ومنه ما يتخذونه زينة يتجملون به في مناسباتهم، ولكن اعلموا أيها الناس أن لباس التقوىٰ خير لصاحبه من لباس الثياب؛ لأنه يكون سببًا في إدخال صاحبه الجنة، ثم بين سبحانه أن هذه الثياب من متاع الحياة الدنيا، ومن دلائل قدرة الله تعالىٰ وفضله، لعلهم يتذكرون هذه النعم فيؤمنون به.

[٢٧] يأمر جل وعلا بني آدم أن لا ينخدعوا بالشيطان فيطيعوه، فيكون ذلك سببًا في إخراجهم من نعم الدنيا والآخرة التي لا تتم إلا بالإيمان بالله، كما استجاب أبواكم آدم وزوجه لإبليس فأخرجهما من الجنة، ونزع عنهما لباسهما وأظهر لهما عوراتهما، واعلموا أن إبليس يراكم هو وذريته وأنتم لا ترونهم، ثم أخبر سبحانه أنه جعل الشيطان وأعوانه أولياء للذين لا يؤمنون بالله ورسوله.

[٢٨] ثم أخبر جل وعلا أن السفهاء المشركين إذا فعلوا فاحشة قالوا: لقد اقتدينا بآبائنا في فعل هذه الفاحشة، والله أمرنا بها، والمقصود بالفاحشة هنا: هو طوافهم بالبيت الحرام الكعبة وهم عراة، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهم: إن الله لا يأمر بالفحشاء والمنكر؛ أتقولون علىٰ الله ما لا تعلمون كذبًا وافتراء عليه؟.

[٢٩] ثم قل يارسول الله لهؤلاء المشركين: لقد أمر ربي بالعدل والاستقامة علىٰ دينه، وأمر أن نتوجه إليه سبحانه في كل عبادة نتعبد الله بها، وأمر بإخلاص الدعاء له، واعلموا أنه كما خلقكم أول مرة من العدم فسيعيدكم إليه مرة أخرىٰ؛ ليحاسبكم علىٰ أعمالكم.

[٣٠] واعلموا أن الناس فريقان: فريق الْتمسوا الخير فوفقهم الله للهداية، وفريق استزلهم الشيطان واستزلتهم الشهوات فوجبت عليهم الضلالة بما كسبت أيديهم من المعاصي، واتخاذهم الشياطين أولياء يوالونهم ويعبدونهم من دون الله، ويظنون أنهم علىٰ الهداية والرشاد.

۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ
وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ
ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ
فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ
لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٣٢ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا
بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ
بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ
أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ
٣٤ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ
ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ
بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ٣٦ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ
بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ
رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ
قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ٣٧

[٣١] يأمر جل وعلا بني آدم أن يلبسوا الملابس الحسنة التي تستر عوراتهم عند كل صلاة، وأن يأكلوا ويشربوا من الخيرات والملذات الحلال كما يشاؤون من غير إسراف ولا تجاوز لحدود المعقول، فإن الله لا يحب المسرفين المتجاوزين لحدوده.

[٣٢] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين الجهلة الذين حرَّموا بعض المآكل والمشارب والملابس بدون دليل من الشرع؛ قل لهم: من حرم عليكم التجمل بالثياب التي خلقها الله لعباده؟، وكذلك من حرم عليكم التلذذ بأنواع المآكل والشارب؟، ثم قل لهم: اعلموا أن ما أحله الله من هذه الطيبات هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ويشاركهم فيها المشركون والكفار تبعًا، أما يوم القيامة فسوف تكون خالصة للذين آمنوا يتنعمون بها وحدهم، أما الكفار فسوف يحرمون منها لأنهم لن يدخلوا الجنة أبدًا، وبهذا البيان الواضح يبين سبحانه آياته لقوم يعلمون أنها من عند الله فيعقلونها ويفهمونها.

[٣٣] وقل لهم يانبي الله: اعلموا أيها الكفار أن الله حرم الفواحش الكبيرة التي ظهر قبحها لكل عاقل؛ سواء ما كان منها سرًّا أو علانية، وكذلك حرَّم المعاصي بكل أنواعها، وحرم التعدي علىٰ الناس بغير الحق ظلمًا وعدوانًا، وحرم عليكم أن تجعلوا له سبحانه شركاء في العبادة، دون أن يكون لديكم حجة أو برهان، وحرم عليكم أن تفتروا عليه سبحانه الكذب بتحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل بدون علم بصحة ما تقولون وصدق ما تدعون.

[٣٤] واعلموا أن لكل أمة من الأمم مدة معلومة عند الله ينتهي أجلها عندها؛ فإذا انتهت هذه المدة المحددة ووقع عليهم الموت ومفارقة الحياة الدنيا، فإنهم لن يستطيعوا تقديم هذه المدة المحددة أو تأخيرها برهة من الزمن.

[٣٥] ثم خاطب جل وعلا كافة البشر فقال سبحانه: يا بني آدم: إذا أتتكم رسلي يتلون عليكم آيات ربكم ليبينوا لكم الشرائع فآمنوا بهم وصدقوهم، واعلموا أن من آمن وخاف الله، ولم يرتكب الذنوب والمعاصي، وعمل الأعمال الصالحة؛ فإنه لا خوف عليهم ولا هم يحزنون في الدنيا والآخرة.

[٣٦] ثم أخبر جل وعلا أن الذين كذبوا بآيات الله التي أنزلت علىٰ رسله، واستكبروا عنها، ولم يستجيبوا لها؛ فأولئك هم أهل النار ماكثون فيها لا يخرجون منها أبدًا.

[٣٧] واعلموا أنه لا أحد أشدُّ ظلمًا ممن افترىٰ علىٰ الله الكذب؛ بنسبة الشريك والولد له، وتحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم، أو كذَّب بآيات الله الواضحة البينة؛ فهؤلاء لهم نصيبهم المقدر لهم في اللوح المحفوظ؛ فيتمتعون في الدنيا قليلًا، ثم يعذبون يوم القيامة في نار جهنم خالدين فيها أبد الآبدين، ثم صور سبحانه حالهم عند قبض أرواحهم فقال: فإذا انتهت آجال هؤلاء المشركين وجاءت الملائكة لتقبض أرواحهم قال الملائكة موبخين لهم: أين أصنامكم التي كنتم تَدْعُونَ من دون الله؟ فيرد هؤلاء المشركون قائلين: لقد غابوا عنَّا ولا ندري أين ذهبوا، ثم اعترفوا علىٰ أنفسهم بأنهم كانوا علىٰ الكفر والضلال، وأنهم يستحقون العذاب الأليم.

قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ
فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ
فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ
عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ
٣٨ وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ
فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٣٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ
وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ
نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤٠ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ
وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ
فِيهَا خَٰلِدُونَ ٤٢ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي
مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا
لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ
وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٤٣

[٣٨] ثم يقول جل وعلا لهؤلاء الكفار يوم القيامة: ادخلوا أيها الكفار النار مع أمم أمثالكم في الكفر والضلال من الجن والإنس قد سبقوا قبلكم إلىٰ النار، ثم بين سبحانه بعض أحوالهم؛ حيث إنه كلما دخلت أمه النار لعنت من سبقتها؛ لأنهم ضلوا بسبب اتِّبَاعِهِم حتىٰ إذا اجتمعوا في النار جميعًا قالت أخراهم دخولًا إلىٰ النار لأولاهم دخولًا: ربنا هؤلاء هم سبب ضلالنا فَضَاعِفْ عليهم العذاب بأشدِّ مما تعذبنا به، فقال جل وعلا: كلَّا! فإن للتَّابع والمتبوع ضعف العذاب، ولكنكم لا تعلمون حقيقة هذا العذاب.

[٣٩] ثم قال الرؤساء لأتباعهم: اعلموا أيها الأتباع أنه لا فضل لكم علينا فيخفف عنكم العذاب، فقد اشتركنا جميعًا في الكفر والضلال؛ فحينئذ يقول جل وعلا للفريقين: فذوقوا العذاب جميعًا بما كنتم تعملون في حياتكم الدنيا من كفر وفسوق وإضلال للآخرين.

[٤٠] ثم أخبر جل وعلا أن الكفار الذين جحدوا آيات الله ولم يعملوا بها علوًّا واستكبارًا عنها؛ لن تُفَتَّحَ أبواب السماء لأرواحهم إذا قُبضت، ولن يصعَدَ لهم عمل صالح أو دعاء في حياتهم الدنيا، ولن يدخلوا الجنة إلا إذا دخل الجمل في ثقب الإبرة، والمقصود: استحالة ذلك، ومثَّل سبحانه بالجمل لأنه أضخم حيوان تعرفه العرب، ثم بين سبحانه أنه بمثل هذا العذاب الأليم يعاقب أولئك الذين كثر إجرامهم واشتد طغيانهم.

[٤١] ثم أخبر جل وعلا أن النار تحيط بهؤلاء المجرمين في جهنم، فلهم من تحتهم فراش ومضجع من نار، ومن فوقهم أغطية من نار، واعلموا أن بمثل هذا العقاب الشديد نعاقب كل ظالم فاجر ظلم نفسه بالكفر بالله وبأنبيائه ورسله.

[٤٢] ثم بين جل وعلا مصير المؤمنين الأبرار الذين آمنوا بالله وعملوا الصالحات علىٰ قدر استطاعتهم، فإن الله لا يكلف نفسًا إلا ما تقدر عليه من العمل الصالح ويكون في استطاعتها، فأخبر سبحانه بأن أولئك المؤمنين هم أهل الجنة خالدون فيها، لا يخرجون منها أبد الآبدين.

[٤٣] ثم أخبر جل وعلا أنه أَذْهَبَ ما في صدور هؤلاء المؤمنين الذين دخلوا الجنة من كل حقد وغل، وجعل أنهار الجنة تجري من تحت قصورهم وأشجارهم، ثم أخبر سبحانه أن أهل الجنة حينما دخلوها قالوا: الحمد لله الذي وفَّقنا للإيمان والعمل الصالح، وما كنَّا لنوفَّق إلىٰ هذا لولا أَنْ هدانا الله سبحانه، وله الحمد حيث ثبتنا علىٰ هذا الإيمان، ثم قالوا: لقد جاءت رسل ربنا بالدين الصحيح الحق فكانوا سببًا في هدايتنا، ثم تنادي الملائكة هؤلاء المؤمنين وتخبرهم أن هذه هي الجنة التي وعدكم الله فقد أورثها الله لكم برحمته، وبسبب ما قدمتم من الأعمال الصالحة المقبولة.

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا
رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ
مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجٗا وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ كَٰفِرُونَ ٤٥ وَبَيۡنَهُمَا
حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ
أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦
* وَإِذَا صُرِفَتۡ أَبۡصَٰرُهُمۡ تِلۡقَآءَ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا
مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم
بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨
أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ
لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ٤٩ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ
ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ
إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٠ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا
وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ
لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ٥١

[٤٤] ثم أخبر جل وعلا أن أهل الجنة ينادون أهل النار ويقولون لهم: لقد وجدنا ما وعد رَبُّنا بالجنة حقًّا، فهل وجدتم ما وعد ربكم من العذاب حقًّا؟ فأجابوهم: نعم، ثم ينادىٰ مناد بين أهل الجنة وأهل النار يسمعه أهل الجنة وأهل النار يقول: أن لعنة الله علىٰ الظالمين المجرمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والضلال وارتكاب الذنوب والمعاصي.

[٤٥] ثم بين جل وعلا أن هذه اللعنة وهذا الطرد من رحمة الله جزاء الظالمين الكافرين الذين يصدون الناس عن اتباع دين الله وشرعه ورسله، ويريدون أن يكون دين الله معْوَجًّا غير مستقيم حسب أهوائهم، وهم بلقاء الله في الآخرة جاحدون مُكَذِّبُون.

[٤٦] ثم أخبر جل وعلا أن بين أهل الجنة وأهل النار حاجزًا عظيمًا مرتفعًا يقال له: الأعراف، وعلىٰ هذا الحاجز رجال تساوت حسناتهم وسيئاتهم، يعرفون أهل الجنة ببياض وجوههم، وأهل النار بسواد وجوههم، وإذا رأوا أصحاب الجنة نادوهم وقالوا: أن سلام عليكم ياأهل الجنة، ثم بين سبحانه أن أهل الأعراف لم يدخلوا الجنة بَعْدُ، وهم يطمعون في رحمة الله بدخولها.

[٤٧] ثم أخبر جل وعلا أن أصحاب الأعراف إذا وقع بصرهم علىٰ أصحاب النار قالوا: ربنا لا تجعلنا في النار مع القوم الظالمين الهالكين.

[٤٨] ثم أخبر جل وعلا أن أصحاب الأعراف ينادون رجالًا من الكفار يعرفونهم بوجوههم، وقد كان لهم في الدنيا شرف ومال ومنصب، فقال لهم أصحاب الأعراف علىٰ سبيل التوبيخ والتقريع: ياأهل النار هل أغنت عنكم الأموال الطائلة التي جمعتموها في الدنيا؟، وهل نفعكم استكباركم علىٰ الحق وعلىٰ الرسول وعلىٰ المؤمنين؟.

[٤٩] ثم قال أهل الأعراف لأهل النار تقريعًا وتوبيخًا لهم: ياأهل النار أهؤلاء الذين أدخلهم الله الجنة برحمته كنتم تُقْسِمُوْن أن لا ينالهم الله برحمة منه احتقارًا لهم وازدراء؟، ثم يقال لأهل الأعراف: ادخلوا الجنة فقد غفر الله لكم، ولا خوف عليكم مستقبلًا من عذاب الله، ولا تحزنون علىٰ ما فاتكم من نعيم الدنيا الزائل؛ لأن الله أذهب عن أهل الجنة الحزن كما في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ﴾ [فاطر:٣٤].

[٥٠] وبعد أن يذوق الذين كفروا عذاب الله فإنهم ينادون علىٰ أهل الجنة طالبين منهم: أن يفيضوا عليهم بعض ما أنعم الله عليهم من الماء، أو مما رزقهم الله؛ فيجيبهم أهل الجنة: إننا لا نستطيع؛ لأن الله حرَّم ذلك علىٰ الكافرين.

[٥١] ثم بين جل وعلا أن الله حرَّم نعيم الجنة علىٰ الكافرين الذين جعلوا دين الله لهوًا وسخرية واستهزاءً ومخادعة ومحاربة للمؤمنين، واغتروا بالحياة الدنيا وزخارفها، ثم بين سبحانه أنه في هذا اليوم وهو يوم القيامة يجازيهم بتركهم في جهنم تركًا كالنسيان، جزاء لتركهم العمل لهذا اليوم، وبسبب جحودهم وكفرهم بآيات الله.

وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ
يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ
فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى
كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ
فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ
يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ
بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾
ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾
وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ
إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ
ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا
سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ
ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾

[٥٢] ثم أخبر جل وعلا أنه أنزل للناس علىٰ لسان نبيه ﷺ هذا القرآن العظيم، الذي فيه تفصيل كل شيء يحتاجه الخلق، وهذا كلُّه بعلم وتقدير من الله، وكذلك جعله سبحانه هدًىٰ لمن امتثله، ورحمة لقوم آمنوا به وتمسكوا بتعاليمه.

[٥٣] ثم قال سبحانه: هل ينتظر هؤلاء الجاحدون إلَّا وقوع ما أخبر به جل وعلا من العذاب والعقاب؟، فيوم يأتيهم ما وُعِدُوا به يوم القيامة يقول هؤلاء الكفار الذين نسوا لقاء هذا اليوم ندمًا وأسفًا: لقد تبين لنا الآن أن رسل الله جاءوا بالحق، فهل لنا من أصدقاء يشفعوا لنا عند ربنا فيرفع عنا العذاب؟، أو نرجع إلىٰ حياتنا الدنيا فنعمل الأعمال الصالحة، ولا نعمل الأعمال التي لا ترضي ربنا كالشرك والمعاصي وغير ذلك، ثم بين سبحانه وتعالىٰ أن هؤلاء المشركين خسروا أنفسهم وضيعوا حياتهم وقت العمل بالدنيا بسبب كفرهم وضلالهم، فمأواهم النار والعذاب، وذهب عنهم ما كانوا يعتقدون من العقائد الباطلة، وما كانوا يفترونه علىٰ الله في الدنيا.

وقوله: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ [الأعراف:٥٣]، **التأويل نوعان:**

الأول: هو التفسير المعروف، وهو شرح الآيات وتبيين المراد منها.

الثاني: وهو المآل، أي: ما يؤول إليه الأمر بوقوعه وظهوره علىٰ الطبيعة؛ كما قال يوسف لأبيه: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا﴾ [يوسف:١٠٠].

[٥٤] يخبر جل وعلا أنه هو الذي خلق السماوات والأرض وما فيهما علىٰ عظمهما في ستة أيام، ثم استوىٰ علىٰ العرش، أي: علا وارتفع عليه.

والاستواء صفة من صفات الله تعالىٰ التي وصف بها نفسه، وهو استواء حقيقي يليق بجلاله وعظمته، وكثير من الفرق الإسلامية كالمعتزلة والأشاعرة يؤولون هذه الصفة، فيقولون: (استوىٰ)، يعني: استولىٰ، كما يؤولون غيرها من صفات الله تعالىٰ، أما أهل السنة والجماعة فيقولون: (استوىٰ)، بمعنىٰ: علا وارتفع علىٰ العرش؛ استواء حقيقيًّا يليق بجلاله عز وجل، نعلم معناه ولا نعلم كيفيته؛ كما أننا لا نعرف كيفية ذاته جل وعلا.

ويقال للمؤولين: أليس الله قبل ذلك كان مستوليًا علىٰ العرش وغيره؛ كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]؟!.

ثم أخبر سبحانه أنه يغشي الليل النهار، أي: أن ظلمة الليل تغطي النهار فتُذهب نوره، وكذلك يُدخل النهار علىٰ الليل حتىٰ يذهب ظلامه، وكلما جاء أحدهما ذهب الآخر، ثم أخبر سبحانه أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات وأنها تسير بأمر الله وقدرته، وأخبر أن له وحده الخلق والأمر، فتنزه سبحانه وتعاظم عن كل نقص وعيب، وهو رب الخلق أجمعين.

[٥٥] يأمر جل وعلا عباده المؤمنين أن يدعوه ويلحون عليه في الدعاء، مظهرين له الذل حال السؤال، واحذروا أن تعتدوا في الدعاء فإن الله لا يحب المعتدين المتجاوزين حدوده في الدعاء وغيره.

ولهذا يجب علىٰ الإنسان وهو يدعو أو يسبح أو يقرأ أن يُسمع نفسه ولا يُزعج من حوله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء:١١٠].

[٥٦] ثم يأمر جل وعلا الناس أن لا يفسدوا في الأرض بعمل المعاصي ونشرها، بعد إصلاحها بإرسال الرسل، وعمرانها بطاعة الله، وادعوه أيها المؤمنون خوفًا من عقابه وطمعًا في ثوابه، واعلموا أن رحمة الله قريب من المحسنين.

يقول أهل السنة والجماعة: الخوف والطمع متلازمان واجبان علىٰ كل مؤمن كالجناحين للطائر، والمحبة كالرأس.

[٥٧] ثم بين جل وعلا نِعْمَةً من نِعَمِهِ علىٰ عباده وهي إرسال الرياح المبشرات للغيث الذي تثيره بإذن الله فيستبشر الخلق برحمته، حتىٰ إذا حملت الرياح السحاب المحمل بالمطر ساقه الله لإحياء بلد قد أجدبت أرضه وكادت أن تهلك حيواناته، ثم أنزل الماء الغزير من ذلك السحاب علىٰ هذه البلدة؛ فأنبت الله لهم الزرع والثمار، ثم بين سبحانه أنه كما أحيا هذه البلدة الميتة بالمطر؛ فإنه يحيي الموتىٰ ويخرجهم من قبورهم، لعلكم تتذكرون قدرة الله علىٰ البعث والنشور.

يقول بعض المفسرين: الرياح بصيغة الجمع في القرآن تعني: الرحمة، والريح بصيغة المفرد تعني: العذاب، وكان ﷺ إذا هبت الريح يدعو في الغالب بهذا الدعاء يقول: «**اللهم اجعلها رياحًا ولا تجعلها ريحًا**»[1].

(١) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٥٣٣)، وأبو يعلى في مسنده (٢٤٥٦).

وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ
إِلَّا نَكِدٗاۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَشۡكُرُونَ ٥٨
لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم
مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٥٩
قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٦٠ قَالَ يَٰقَوۡمِ
لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١
أُبَلِّغُكُمۡ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمۡ وَأَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ
مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٦٢ أَوَعَجِبۡتُمۡ أَن جَآءَكُمۡ ذِكۡرٞ مِّن رَّبِّكُمۡ
عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنكُمۡ لِيُنذِرَكُمۡ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ
٦٣ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَأَغۡرَقۡنَا ٱلَّذِينَ
كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمًا عَمِينَ ٦٤ ۞ وَإِلَىٰ
عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ
غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥ قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦٓ
إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦٦
قَالَ يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي سَفَاهَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦٧

[٥٨] ثم أخبر جل وعلا أن الأرض الطيبة التربة تنبت بعد إنزال المطر عليها، أما الأرض السبخة التربة ينزل عليها المطر فلا تنبت إلا قليلًا ولا يُنتفع بها، وهكذا العبد المؤمن ذو القلب الطيب إذا سمع ما ينزل من الآيات يزداد إيمانه، وتحسُن أعماله الصالحة، أما الكافر فعندما يسمع القرآن فإنه لا ينتفع به، فلا يعمل خيرًا ولا يترك شرًّا، وإن عمل خيرًا فهو بتباطؤٍ ونكد.

[٥٩] يخبر جل وعلا أنه بعث نوحًا عليه السلام إلىٰ قومه يدعوهم إلىٰ توحيد الله سبحانه وإخلاص العبادة له، فقال نوح لقومه: ياقومي اعبدوا الله وحده لا شريك له، واعلموا أنه ليس هناك إله يستحق العبادة غير الله سبحانه وتعالىٰ، وإنني أخاف أن يحلَّ عليكم يوم القيامة عذاب عظيمٌ هوله لشدة ما فيه من الأهوال والكروب.

[٦٠] فرد الرؤساء من قوم نوح علىٰ نبيهم قائلين: إنا لنراك يانوح في بُعْد بيِّن واضح عن الحق والصواب، لأنك تركتَ دينَ آبائك.

[٦١] فردَّ عليهم نوح عليه السلام قائلًا: اعلموا ياقوم أنه ليس بي كما تزعمون شيء من الضلالة، ولكني رسول من الله خالق العالم ورازقهم أجمعين.

[٦٢] واعلموا ياقوم أن وظيفتي التي كلفني الله بها أن أبلغكم رسالة ربِّ العالمين، وأنصحكم أن تستجيبوا لي، وتؤمنوا بالله ربكم؛ فإنه يوحىٰ إليَّ من الله جل في علاه أنما إلهكم إله واحد وهو الله لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

[٦٣] ثم قال نوح عليه السلام لقومه: كيف تعجبون أن جاءكم التذكير والنصح علىٰ يد رجل منكم تعرفونه وتعرفون صدقه وأمانته؟ لكي ينذركم عاقبة الشرك والكفر والضلال، وما أعد الله من العذاب الأليم للمشركين؛ ولكي تخافوا الله فتعملوا بطاعته وتجتنبوا معصيته؛ ولعل الله يرحمكم يوم القيامة بعد أن تفعلوا الأسباب التي تؤدي إلىٰ رحمته سبحانه وتعالىٰ.
وهذا تبكيت لهم؛ فلو جاءهم رسول من غير جنسهم فإنهم لن يفهموا منه، ولن يتأسوا به، ولرفضوه.

[٦٤] ثم أخبر جل وعلا أنه لم يؤمن بنوح عليه السلام إلا القليل من قومه الذين صدقوا به وآمنوا بالله، مع أنه دعا قومه إلىٰ التوحيد والإيمان بالله مدة طويلة من الزمان؛ وكانت النتيجة أن الله أنزل عليهم العذاب، فأنجىٰ سبحانه نوحًا والذين معه في السفينة، وأغرق الله الذين جحدوا بآيات الله ولم يؤمنوا به جل في علاه؛ ثم بين سبحانه وتعالىٰ أنهم كانوا قومًا عُمْيَ القلوب عن قبول الحق بسبب طغيانهم وتكبرهم.

[٦٥] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل إلىٰ قوم عاد أخاهم هودًا عليه السلام لأنه واحد منهم، فقال: ياقوم اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا معه في العبادة أحدًا؛ فليس لكم إلهٌ حقٌّ غيره، أفلا تخافون نقمته جل في علاه.

[٦٦] فقال كبار الكفار من قوم هود عليه السلام: إنا لنراك ياهود في جهالة وخفة عقل، ويغلب علىٰ ظننا أنك كاذب في رسالتك.

[٦٧] فرد عليهم هود عليه السلام قائلًا: والله ياقوم ليس بي جهالة بوجه من الوجوه، ولكني رسول من رب الخلق أجمعين، أرسلني إليكم لأنصح لكم، وأُخرجكم من الظلمات إلىٰ النور؛ فهو لم ينتصر لنفسه؛ بل اكتفىٰ بشرح مهمته.

أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن
جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ
وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ
فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ
﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ
ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾
قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ
أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم
مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ
ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا
وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ
﴿٧٢﴾ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ
مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ
هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ
ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

[٦٨] ثم قال هود عليه السلام لقومه: اعلموا ياقومي أنني أحمل إليكم رسالة ربي حتىٰ أبلغكم بها، وأنا في ذلك ناصح لكم لا أريد لكم إلا النجاة من النار، وأنا أَمِينٌ مخلص أبلغكم وحي الله تعالىٰ في أرضه.

[٦٩] ثم قال لهم هود عليه السلام: لماذا تعجبون أن جاءكم ذِكْرٌ وموعظة من ربكم علىٰ لسان رسول أرسله الله إليكم، وهو رجل منكم، تعرفون نسبه وصدقه؛ ليخوِّفكم عذاب الله؟ ثم ذكرهم بنعم الله عليهم ومن ذلك أنه جعلكم خلفاء من بعد ما أهلك الله قوم نوح بالطوفان بسبب كفرهم وجحودهم، وكذلك زاد في أجسامكم قوة وطولًا، ثم عاد هود عليه السلام وذكرهم بنعم الله عليهم فقال: فاذكروا نعم الله الكثيرة عليكم، واشكروا الله عليها؛ لعلكم تفلحون وتفوزون في الدنيا والآخرة.

[٧٠] ثم قال قوم عاد لنبيهم هود عليه السلام: أجئتنا ياهود لتدعونا إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، وترك ما كان يعبد آباؤنا من الأصنام؟ ثم أن هودًا عليه السلام كان ينذرهم بالعذاب الأليم إذا لم يؤمنوا بالله واستمروا في كفرهم وضلالهم، فقال له قومه: فَأْتِنَا بالعذاب الذي تخوفنا به إن كنت ياهود صادقًا في دعواك.

[٧١] فقال لهم هود عليه السلام: اعلموا ياقوم أنكم ما دمتم مُصِرِّين علىٰ الكفر فقد وجب غضب الله وعذابه عليكم، وبعد أن هددهم قال لهم عليه السلام: أتجادلونني في أصنام أحدثتموها أنتم وآباؤكم وجعلتموها آلهة؟ وما نزَّل الله بها من حجة أو دليل؛ فانتظروا عقاب الله كما طلبتم، وأنا معكم سأنتظر عقوبة الله بكم.

[٧٢] ثم أخبر جل وعلا أنه أنجىٰ هودًا والذين آمنوا معه من المؤمنين برحمة من الله وفضل، وأنه أهلك القوم الذين كذبوا بآيات الله واستأصلهم، وما كانوا من المؤمنين لتكذيبهم بآيات الله وعدم تصديق رسوله ﷺ.

[٧٣] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل إلىٰ قبيلة ثمود أخاهم صالحًا، فقال لهم: ياقوم اعبدوا الله وحده لا شريك له، واعلموا أنه ليس لكم إله غيره يستحق العبادة فتعبدوه، ثم قال لهم: وقد جئتكم بمعجزة من ربكم وهي ناقة عظيمة، خلقها الله وأخرجها من الصخرة حسب رغبتكم؛ لتكون دليلًا علىٰ صدق ما أدعوكم إليه، فاتركوها تأكل في أرض الله ولا تتعرضوا لها بإيذاء أو ذبح أو غيره، فإن فعلتم فسوف يأتيكم من الله عذاب أليم موجع.

وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ
ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى
ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن
قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ
أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ
مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ
ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ
أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ
مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ
جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ
﴿٧٩﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم
بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ
شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾

[٧٤] وبعد أن بين صالح عليه السلام لقومه مهمته قال لهم: تذكروا ياقومي نعمة ربكم عليكم؛ حيث جعلكم خلفاء في الأرض بعد أن أهلك قوم عاد الذين كانوا من قبلكم؛ بسبب إجرامهم وطغيانهم، وأسكنكم في أرض الحِجْر تبنون في سهولها القصور الفارهة، وتنحتون من الجبال بيوتًا لقبور موتاكم؛ فاذكروا نعم الله عليكم، واشكروه سبحانه علىٰ ما تفضل عليكم بهذه النعم، واحذروا أن تنشروا في الأرض الفساد، فيهلككم الله كما أهلك من قبلكم، قوم عاد وغيرهم من الأقوام المفسدين.

[٧٥] فقال كبار الكفار الذين استكبروا من قوم صالح، مخاطبين من آمن من ضعفاء القوم علىٰ سبيل السخرية والاستهزاء: هل أنتم متأكدون أن صالحًا مرسل من ربه؟ فأجاب المؤمنون الضعفاء قائلين: إنا بما أُرْسِلَ به صالح لمؤمنون.

[٧٦] فرد المستكبرون عليهم قائلين: أما نحن فإنا بالذي آمنتم به جاحدون وغير معترفين.

[٧٧] وبعد إصرار هؤلاء المجرمين علىٰ الكفر والجحود قاموا بعقر الناقة واستكبروا وتمردوا علىٰ دين الله ولم يطيعوه سبحانه، ثم قالوا علىٰ سبيل العناد والاستكبار والسخرية: ائْتِنَا ياصالح بالعذاب الذي توعدتنا به إن كنت من المرسلين حقًّا.

[٧٨] ثم أخبر سبحانه وتعالىٰ أنه أمهلهم ثلاثة أيام ثم نزل بهم العذاب الشديد؛ كما قال تعالىٰ: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود:٦٥]؛ فزلزل الله الأرض من تحتهم؛ فأصبحوا في ديارهم جاثمين علىٰ رُكَبهم ووجوههم.

وقد وصف جل وعلا كِبَرِ جثثهم بجذوع النخل؛ فقال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧]، وهذا وصف لقوم عاد، وينطبق علىٰ قوم ثمود، وعلىٰ كل من أخذتهم الصيحة؛ حيث انتشرت جثثهم في العراء كأعجاز النخل الخاوية، إذ لم يُقْبَرْ أحد منهم؛ حيث أخذتهم الصيحة جميعًا، نعوذ بالله من غضبه وسخطه.

[٧٩] وبعد أن وقع العذاب علىٰ قوم ثمود وأفناهم الله جميعًا أعْرَضَ نبيهم صالح عليه السلام عنهم وتركهم لمصيرهم الذي استحقوه، وقال علىٰ سبيل الحزن والتحسر: والله ياقوم قد أبلغتكم أوامر الله عز وجل، ونصحتكم وحذرتكم أن ينزل بكم عذابه، ولكنكم لا تحبون من ينصحكم ويوجهكم.

وهكذا كل الذين لا يرغبون في الصلاح يكرهون من ينصحهم ويرشدهم.

[٨٠] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل لوطًا عليه السلام إلىٰ قومه ليدعوهم إلىٰ دين الله ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وبخاصَّةٍ عن تلك الفعلة الشنيعة التي ابتدعوها، وهي فاحشة أن يجامع الرجل رجلًا، وسميت لواطًا لأنهم هم الذين ابتدعوها؛ حيث قال لهم مستنكرًا عليهم: ياقوم أتأتون هذه الفاحشة البشعة القبيحة التي لم يفعلها أحد من قبلكم من العالمين.

[٨١] ثم قال لوط عليه السلام لقومه مستنكرًا عليهم: ياقوم إنكم لتأتون الذكور في أدبارهم شهوة منكم، وتتركون ما أحل الله لكم من نسائكم، إنكم قوم متجاوزون لحدود الله غارقون في الذنوب والمعاصي؛ فخافوا الله ربكم وأقلعوا عن هذه الجريمة.

وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن
قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ
وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا
عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ
﴿٨٤﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ
مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ
فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ
أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ
ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا
تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟
إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ
ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟
حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

[٨٢] فما كان من هؤلاء السفهاء المجرمين إلا أن أجابوا نبيهم لوطًا عليه السلام ومن آمن معه فقالوا: أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتنزهون عما نفعله من هذه الفواحش ومن إتيان الرجال في الأدبار، فيا سبحان الله لقد أصبح الذي يتطهر ويبتعد عن هذه الفواحش في نظر هؤلاء غير صالح لمساكنتهم.

وقوله: ﴿أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ﴾، هذا هو ديدن الفساق في كل زمان أنهم لا يحبون أهل الصلاح؛ لأنهم يعكرون عليهم صفو حياتهم وفسقهم وفجورهم، ولذا فإنهم يسعون للتخلص منهم بإخراجهم وإبعادهم لتخلو لهم الأجواء.

[٨٣] ولما أراد جل وعلا أن يعاقب قوم لوط علىٰ فسقهم وإجرامهم أنجىٰ سبحانه لوطًا عليه السلام وأهله، إلا امرأته فإنها كانت من هؤلاء الضالين الباقين الذين بقوا في قريتهم فنالهم العذاب الأليم؛ حيث إنها لم تؤمن بلوط عليه السلام، ورضيَتْ بهذا الفعل من قومها ولم تستنكره؛ بل قيل: إذا جاء أضيافٌ لنبي الله لوط عليه السلام، فإن امرأته كانت تُسَلِّطَ عليهم أولئك المجرمين.

[٨٤] ثم أخبر جل وعلا أنه أنزل علىٰ هؤلاء المجرمين نوعًا عجيبًا من العذاب يناسب جريمتهم، لأنهم انتكسوا عن الفطرة فأتوا الرجال دون النساء؛ فكانت عقوبتهم أن أنزل الله عليهم أمطارًا من حجارة من طين متجمد، وقلب قريتهم التي كانوا فيها فجعل عاليها سافلها، فانظر أيها الرسول كيف صارت عاقبة هؤلاء الذين جحدوا آيات الله وكذبوا رسله وانتهكوا محارمه.

[٨٥] ثم أخبر جل وعلا أنه أرسل إلىٰ قبيلة مدين شعيبًا الذي تربط بينه وبينهم رابطة النسب؛ فقال لهم: ياقوم اعبدوا الله وحده لا شريك له؛ فقد جاءتكم الآيات والحجج والبراهين التي تدل علىٰ صدق ما جئتكم به؛ وأتموا المكيال والميزان ولا تنقصوا شيئًا من حقوق الناس، ولا تفسدوا في الأرض بارتكاب الذنوب والمعاصي بعد أن بذل الأنبياء وأتباعُهم الصالحون جهدهم في إصلاحها وإصلاح أهلها؛ واعلموا أن هذه الأوامر التي أمركم الله بها هي خير لكم من الاستمرار في الظلم العدوان والإفساد في الأرض، إن كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر.

وقد ذكر المفسرون أن مدين تقع بقرب مدينة مَعَان جنوب الأردن علىٰ طريق الحجاز.

[٨٦] واستمر شعيب عليه السلام في نصح قومه فقال لهم: ولا تجلسوا ياقومي بكل طريق تخوفون من أراد الإيمان بالله بالقتل والتعذيب، وتبذلون جهدكم في صرف من آمن بالله عن الطريق المستقيم وعن الهدىٰ، وتسعون في أن يكون طريق الله المستقيم طريقًا معوجًا بإلقاء الشُّبهات وإشاعة الأباطيل، ثم قال لهم: واذكروا ياقومي نعمة الله عليكم يوم أن كان عددكم قليلًا فكثركم، وكنتم فقراء فأغناكم، وانظروا إلىٰ المفسدين ممن قبلكم كيف كانت نهايتهم؛ حيث كان آخر أمرهم الهلاك والدمار.

[٨٧] ثم نصح شعيب عليه السلام قومه أن يتحلوا بشيء من الصبر والعدل، فقال لهم: وإن كان جماعة منكم آمنوا برسالتي وصدقوني، وجماعة لم تؤمن بل أصروا علىٰ كفرهم وعنادهم، فاصبروا حتىٰ يحكم الله بيننا وبينكم بحكمه العادل وهو سبحانه خير الحاكمين؛ وعندها سينصر الله الحق وأهله، ويعذب المشركين الجاحدين؛ وحينئذٍ ترون أيها المكذبون الضالون أنكم كنتم في ضلال واضح مبين.

۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ
كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ
إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ
ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ
بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ
﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟
هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ
رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ
كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا
بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا
مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا
ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

[٨٨] وبعد أن أفحم خطيب الأنبياء شعيب عليه السلام قومه بالحجج والبراهين قال الزعماء والكبراء من قومه لشعيب وأتباعه: والله لنخرجك يا شعيب ومن معك من المؤمنين من قريتنا، أو ترجعون لديننا وتتركون ما تدعون إليه، فرد شعيب عليه السلام علىٰ هؤلاء السفهاء قائلًا لهم: أنتبع دينكم ونحن كارهون له ونعلم أنه باطل؟.

وبمثل هذا الأسلوب كان رد قوم نوح لنبيهم نوح عليه السلام: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء:١١٦].

أما قوم إبراهيم عليه السلام فقد أوقدوا نارًا عظيمة لم يستطيعوا القرب منها فرموه بها بالمنجنيق، قال تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء:٦٨ - ٦٩].

فالأنبياء والدعاة كلهم علىٰ مدىٰ الأزمنة والعصور غير مرغوب فيهم من الكفرة والفساق.

[٨٩] ثم قال شعيب عليه السلام لقومه: اعلموا يا قوم لو أنا أطعناكم وعدنا إلىٰ دينكم الباطل بعد أن نجانا الله منه بالإيمان والهداية إلىٰ الحق؛ فنكون إذًا قد ظلمنا أنفسنا وافترينا علىٰ الله أشنع أنواع الكذب، واعلموا أيضًا أنه لا يصح ولا يجوز لنا أن نغير دين ربنا إلا إذا شاء الله لنا العذاب والشقاء، فهو سبحانه صاحب المشيئة النافذة ولا رادَّ لمشيئته، وهو جل وعلا لا يرضىٰ لعباده الكفر؛ ولذا علىٰ المؤمن أن لا يغتر بنفسه؛ بل يقول كما في سورة آل عمران: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨]، ثم قال شعيب عليه السلام: واعلموا أن الله قد أحاط بكل شيء علمًا، وأن كل ما يقع في هذا الكون فهو بقدره ومشيئته وعلمه، ومن علمه أنه يعلم ما يصلح للعباد وما يضرهم، ثم توجه شعيب عليه السلام إلىٰ الله فقال: يا ربنا إنا قد اعتمدنا عليك وحدك، فنسألك أن تحكم بيننا وبين قومنا الذين ظلمونا بالحق إنك خير الحاكمين.

[٩٠] ولم يكتف قوم شعيب بتهديد شعيب وأتباعه؛ بل أخذوا في تهديد الناس وتحذيرهم من أن يتبعوا شعيبًا ومن معه، وقالوا لهم: إن اتبعتم شعيبًا وجماعته فسوف تكونون من الهالكين الخاسرين لعزكم ومكانتكم وأموالكم.

[٩١] وبعد كل هذه المحاورات والمجادلات التي دارت بين شعيب وقومه، وإصرار قومه علىٰ الكفر والجحود والضلال، عاقبهم الله بالزلزلة الشديدة فأصبح عليهم الصبح في دارهم باركين علىٰ ركبهم موتىٰ هالكين.

[٩٢] واعلموا أن أولئك الذين كذبوا شعيبًا عليه السلام وهددوه وأتباعه بالإخراج من ديارهم لقد نزل بهم العذاب فصاروا كأنهم لم يسكنوا أو يقيموا في ديارهم، وكانت النتيجة أن الذين كذبوا شعيبًا قد خسروا خسرانًا مبينًا.

[٩٣] وبعد أن أصابهم ما أصابهم من العذاب والهلاك أعرض شعيب عليه السلام عنهم، وقال علىٰ سبيل التأسف والحسرة: ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فلم تستجيبوا لنصحي؛ فكيف أحزن وآسف علىٰ هلاككم وعذابكم؟.

[٩٤] يخبر جل وعلا عن الأمم التي كذبت رسلها؛ حيث ابتلاهم الله بالفقر والأمراض بسبب عنادهم وكفرهم، لعلهم ينيبوا إلىٰ الله ويرجعوا إلىٰ الحق؛ ولو أنهم رجعوا إلىٰ ربهم وسألوه الفرج وأنابوا إليه ضارعين متذللين لرفع عنهم البلاء والشدة وعوضهم بالرخاء والنعمة، ولعلهم يشكرون المتفضل المنعم الذي رفع عنهم الضراء والشدة.

[٩٥] وبعد أن ابتلىٰ جل وعلا هذه الأمم بالأمراض والفقر أخبر سبحانه أنه رفع عنهم البلاء وأعطاهم الصحة والعافية والغنىٰ والرخاء والسعة، كل ذلك لعلهم يشكرون الله المنعم المتفضل عليهم، فلما لم تلن قلوبهم مما حل بهم وقالوا: هذه طبيعة الدنيا، وهذه أحوال مرت علىٰ آبائنا وأسلافنا، وهذه أحوال الزمن وتقلبات الدهر والطبيعة، فسخط الله عليهم ثم أتاهم العذاب بغتة من غير شعور منهم؛ فأهلكهم الله وأفناهم.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ
مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟
يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا
بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم
بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ
فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ
لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ
أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ
﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ
رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن
قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا
لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾
ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ
فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾
وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

[٩٦] يخبر جل وعلا عن تلك القرىٰ التي أهلكها لو أنهم آمنوا بالله وصدقوا الرسل، وخافوا الله باتباع ما أمر واجتناب ما نهىٰ عنه وزجر؛ لأنزل الله عليهم بركات السماء وهي المطر، وبركات الأرض وهي الثمار والنبات والخصب والنعيم، لكنهم جحدوا آيات الله وكذبوا رسله فعاقبهم الله بسبب كفرهم وعنادهم في الدنيا بالبأساء والضراء، وفي الآخرة بالنار.

[٩٧] ثم قال جل وعلا علىٰ سبيل التخويف والتحذير لهؤلاء الغافلين: هل أَمِنَ أهل تلك القرىٰ التي أهلكناها بسبب كفرها وجحودها أن يأتيهم عذابنا وقت بياتهم وهم غارقون في نومهم؟

[٩٨] ثم قال جل وعلا: أو أمن أهل تلك القرىٰ المهلكة أَمِنُوا أن يأتيهم عذابنا نهارًا وهم ساهون لاهون في غاية الغفلة والانشغال في ملذات الحياة الدنيا؟

[٩٩] ثم قال جل وعلا: هل أمنوا مكرنا واستدراجنا لهم بالنعم؟؛ حيث أمهلناهم في طغيانهم ونعيمهم؛ فاعلموا أيها الناس أنه لا يأمن مكر الله ويستمر في غيه وضلاله إلا الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، وذلك هو الخسران المبين.

[١٠٠] ثم قال جل وعلا: أَوَلَمْ يتبين لهؤلاء الكفار الأشقياء الذين ورثوا الأرض من بعد أهلها الذين أهلكهم الله بذنوبهم ثم ساروا علىٰ طريقتهم في الكفر والضلال؛ أَوَلَمْ يتبين لهم أن في قدرة الله أن يصيبهم العذاب الشديد بسبب كفرهم وضلالهم وذنوبهم كما أصاب من سبقهم، ثم يختم الله علىٰ قلوبهم فلا يستطيعون سماع النصح والإرشاد، ويستمرون علىٰ ذلك حتىٰ يموتوا علىٰ الكفر والضلال فيكون ذلك سببًا في دخولهم النار.

[١٠١] ثم أخبر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن تلك القرىٰ التي قصَّ سبحانه عليه شيئًا من أخبارها وما جرىٰ لها مع أنبيائها؛ ليكون ذلك عبرة للمعتبرين، وموعظة للمتعظين، ثم بين سبحانه أن تلك الأقوام المكذِّبة جاءتهم رسلهم ودعوهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، وقد أيدهم الله بالمعجزات الواضحات، ولكنهم لم يؤمنوا ولم يتعظوا؛ بل استمروا في كفرهم وضلالهم، وبسبب ذلك طبع الله علىٰ قلوبهم عقوبة لهم جزاء ما فعلوه واقترفوه من الكفر والذنوب والمعاصي.

[١٠٢] ثم أخبر جل وعلا نبيه ﷺ أن أكثر الناس لا يوفون بالعهود؛ بل إن أكثرهم فاسقون خارجون عن طاعة الله؛ كما قال جل وعلا: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦]، وكما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣].

وإخبار النبي ﷺ بذلك حتىٰ لا يضيق ذرعًا بأحوال من أرسل إليهم، وكأن الله سبحانه يقول له: انتبه يانبي الله فإنَّا أرسلناك إلىٰ أناس يغلب علىٰ طبائعهم كذا وكذا؛ ليعرف كيف يتعامل معهم ﷺ.

[١٠٣] وبعد الأمم والأنبياء السابق ذكرهم؛ نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب عليهم السلام، أخبر جل وعلا أنه بعث موسىٰ عليه السلام إلىٰ فرعون وقومه ومعه آيات الله البينة، والحجج والبراهين الواضحة، والمعجزات الباهرة؛ فآمن به السحرة وبنو إسرائيل، أما فرعون وقومه فجحدوا وكفروا بها ظلمًا منهم وعنادًا، وكان فرعون وقومه إذا نزل بهم الضر قالوا لموسىٰ عليه السلام: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٩]، فإذا رفع الله عنهم الضر رجعوا عن وعدهم بالهداية وقالوا: ﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٣٢]، وبهذا حلت بهم النقمة والغرق في البحر الأحمر، ولهذا قال سبحانه: فانظر يانبي الله كيف كانت نهاية المفسدين الظالمين لأنفسهم ولغيرهم.

[١٠٤] ثم بدأ الحوار بين موسىٰ عليه السلام وفرعون الطاغية الجبار، فقال موسىٰ عليه السلام لفرعون: اعلم أني مرسل إليك من الله خالق الخلق أجمعين، أرسلني بالهدىٰ ودين الحق؛ لأدعوك إلىٰ عبادته سبحانه وحده لا شريك له.

حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ
مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ
جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ
عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ
لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ
عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ
﴿١١٠﴾ قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ
بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓا۟ إِنَّ
لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ
لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن
نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا۟ ۖ فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ سَحَرُوٓا۟
أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿١١٦﴾
* وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ
﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟
هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾

[١٠٥] ويبدو أن فرعون كذب موسىٰ في دعوىٰ الرسالة؛ لذلك رد عليه موسىٰ فقال له: اعلم يا فرعون أنه واجب وحق علي أن لا أخبر عن الله إلا بما هو حق وصدق، وقد جئتكم بحجة واضحة ومعجزة ساطعة تدل علىٰ صدقي؛ فاترك بني إسرائيل وحرِّرْهُم من الاستعباد والقهر؛ ليذهبوا معي إلىٰ الأرض المقدسة، حتىٰ يتمكنوا من عبادة الله وحده لا شريك له.

[١٠٦] فقال فرعون لموسىٰ: إن كنت جئت ومعك دليل من عند من أرسلك يدل علىٰ صدق ما تقول؛ فأظهره لي إن كنت من أهل الصدق فيما تدعي.

[١٠٧] فما كان من موسىٰ عليه السلام إلا أن ألقىٰ عصاه التي كانت بيمينه أمام فرعون، فإذا بهذه العصىٰ تتحول إلىٰ ثعبان ضخم ظاهر واضح للعيان.

[١٠٨] ثم أراه موسىٰ معجزة أخرىٰ؛ حيث أدخل يده في جيبه ثم أخرجها فإذا هي بيضاء ناصعة البياض لكل من نظر إليها.

[١٠٩] فقال الأشراف من قوم فرعون حين بهرهم ما رأوا من الآيات: احذروا أيها الناس؛ إن هذا الرجل لعالم بالسحر، ماهر به.

[١١٠] فقال فرعون: واعلموا أن هذا الساحر يريد بسحره هذا أن يخرجكم من عقائدكم، كما قال تعالىٰ: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦]؛ فأشيروا عليَّ ماذا نحن فاعلون بموسىٰ.

[١١١] فقال الأشراف من قوم فرعون: نشير عليك بأن تؤخر أمره هو وأخاه حتىٰ ترسل في كل المدن من يجمع لك كبار السحرة وخبراءهم ليناظروه.

[١١٢] وقال الأشراف أيضًا: وتكون مهمة هؤلاء الذين يجمعون السحرة أن يأتوك بكل ساحر قدير عالم بسحره؛ ليظهروا كذب موسىٰ.

[١١٣] ثم جاء السحرة إلىٰ فرعون، وقالوا له: هل لنا يافرعون جزاء حسنًا إن كانت الغلبة والنصرة علىٰ موسىٰ لنا؟

[١١٤] فقال فرعون: نعم لكم أجر كبير، ولكم أيضًا القرب مني، وعلو المنزلة عندي.

[١١٥] فقال السحرة: إما أن تلقي ياموسىٰ عصاك أنت أولًا، أو نلقي نحن ما بأيدينا من الحبال والعِصِي أولًا.

[١١٦] فقال لهم موسىٰ: بل أَلْقُوا أيها السحرة أنتم أولًا؛ فلما ألقوا ما بأيديهم من الحبال والعصي سحروا أعين الناس وأخافوهم من هول سحرهم العظيم.

[١١٧] ثم أوحىٰ جل وعلا إلىٰ موسىٰ أن يُلقي عصاه، فألقاها كما أمره الله، فإذا عصاه تبتلع ما ألقوا من العصي والحبال.

[١١٨] ثم أخبر جل وعلا أن الحق ظهر وتبين، وظهر صدق موسىٰ عليه السلام ونصره الله علىٰ فرعون وقومه، وبطل عمل السحرة الباطل.

[١١٩] ثم أخبر جل وعلا أن فرعون وأتباعه غُلبوا وانصرفوا ذليلين.

[١٢٠] وبعد أن رأىٰ السحرة معجزة موسىٰ وهي العصا التي تحولت إلىٰ ثعبان ضخم ابتلعت كل ما حولها من عصيهم وحبالهم، عرفوا بخبرتهم أن ما حصل ليس سحرًا، وإنما هي معجزة من الله، ولذلك خرُّوا ساجدين عابدين مطيعين لله رب العالمين، معترفين بخطئهم وشناعة فعلهم.

قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾ قَالَ
فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ
مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ
﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ
أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ
إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا
وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ
وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ
أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾
قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ
لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾
قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ
عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ
بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾

[١٢١] وبعد أن تبين الحق للسحرة وخرُّوا لله ساجدين قالوا: لقد آمنا بالله ربنا ورب الخلق أجمعين.

[١٢٢] ثم قال السحرة: واعلموا أن هذا الرب الذي آمنا به هو رب موسىٰ وهارون. وقد أكدوا أنهم آمنوا برب موسىٰ وهارون حتىٰ لا يظن أحد المستمعين أنهم آمنوا بفرعون الذي كان يدعي الربوبية.

[١٢٣] فقال فرعون للسحرة: أصدقتم بموسىٰ من قبل أن تستأذنوني؟ إن هذا لأمر وحيلة صنعتموها فيما بينكم وبين موسىٰ لتستولوا علىٰ العقول وتخرجوا الناس من معتقداتهم؛ فسوف تعلمون ما أفعل بكم من العذاب والنكال.

[١٢٤] ثم قال فرعون: اعلموا أيها السحرة أنني سوف أقطع أيديكم وأرجلكم من خلاف، أي: اليد اليمنىٰ مع الرجل اليسرىٰ، وَأُصَلِّبُكُم علىٰ جذوع النخل لتكونوا عبرة للآخرين.

[١٢٥] فقال السحرة: اعلم يا فرعون أننا راجعون لا محالة إلىٰ الله ربنا بعد أن نموت، فخير لنا أن نقابل ربنا بالتوحيد والإخلاص، من أن نقابله بالشرك والكفر والسحر والضلال.

[١٢٦] ثم قال السحرة: وهل تعاقبنا يا فرعون لأننا صدّقنا موسىٰ، وصدّقنا الآيات والمعجزات عندما جاءتنا، ثم دعوا الله فقالوا: ياربنا هب لنا صبرًا واسعًا نقوىٰ معه علىٰ احتمال الشدائد، وتوفنا علىٰ الإسلام برحمتك يا أرحم الراحمين.

[١٢٧] فقال الأشراف من قوم فرعون محرضين علىٰ موسىٰ: أتترك يا فرعون موسىٰ وبني إسرائيل يفسدوا عليك العبيد في أرضك، ويتركك أنت وآلهتك فلا يعبدوها، وهذا دليل علىٰ أن قوم فرعون مِثْلُهُ في السوء ورد الحق، فقال فرعون: سوف نُقَتِّلُ أبناءَهم، ونبقي علىٰ نسائهم بدون قتل، وسوف نكون نحن الغالبون لموسىٰ ومن معه من بني إسرائيل.

[١٢٨] ثم قال موسىٰ لقومه بني إسرائيل، تسلية وتهدئة لهم: استعينوا بالله وتحلَّوا بالصبر علىٰ أذىٰ فرعون وقومه؛ فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وهي ولابد ستكون لمن آمن بالله وحده، وخافه بفعل المأمورات وترك المنهيات.

[١٢٩] فقال القوم من بني إسرائيل: لقد نالنا الأذىٰ ياموسىٰ قديمًا من قبل أن تأتينا بالرسالة، وحديثًا من بعد مجيئك بها، فقال موسىٰ لهم: لعل الله أن يهلك عدوكم الذي آذاكم، ويجعلكم خلفاء الأرض حتىٰ يعلم سبحانه ما أنتم عاملون، وهذا دليل علىٰ علم موسىٰ بقومه، وأنهم ينكثون العهود.

[١٣٠] ثم أخبر جل وعلا أنه عاقب آل فرعون بالجدب فلا ينبت لهم زرع، وعاقبهم بنقص الحبوب والثمار؛ كل ذلك لعلهم يتعظوا ويتذكروا فيؤمنوا بالله رب العالمين، ويتركوا ما هم فيه من الكفر والعصيان.

فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ
يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ
مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا
عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ
آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ
﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا
عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ
وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ
الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُم بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانتَقَمْنَا
مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا
غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ
مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ
رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ۖ وَدَمَّرْنَا
مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

[١٣١] يخبر جل وعلا أن فرعون وقومه استمروا في كفرهم وعنادهم ولم يتعظوا بما وقع لهم من أنواع العقوبات، ودليل ذلك أنهم إذا حصل لهم خير وخصب وسعة ورخاء قالوا: هذه نعم جاءت من أجلنا، ونحن مستحقون لها، ولم يشكروا المنعم الذي جاء بها وهو الله، أما إذا أصابهم الجدب والبلاء تشاءموا بموسىٰ ومن معه من المؤمنين؛ فليعلم هؤلاء الأشقياء أن ما أصابهم من الشر والبلاء هو من قضاء الله وقدره؛ بسبب كفرهم وفسوقهم، وليس بشؤم موسىٰ ومن معه، ولكن أكثرهم لا يعلمون.

[١٣٢] ثم قال هؤلاء الأشقياء من قوم فرعون لموسىٰ عليه السلام: مهما جئتنا ياموسىٰ بأنواع الآيات التي تستدل بها علىٰ حقيقة دعوتك وصدق رسالتك، لكي تصرفنا عن ديننا، فلن نصدقك أو نتبع رسالتك التي جئت بها؛ بل نعتبر ذلك من السحر الواضح البيِّن.

[١٣٣] ثم بين جل وعلا بعض الآيات التي أُرسل بها موسىٰ عليه السلام، ومن ذلك: الطوفان، والجراد، والقمَّل، والضفادع، والدم؛ وذكر في الآية ١٠٨ السابقة آيتين، وهما: العصا، واليد البيضاء، وذكر أيضًا في الآية ١٣٠ السابقة آيتين، وهما: السنين، ونقص الثمرات؛ فيكون جميع الآيات التي أرسل بها موسىٰ عليه السلام تسع آيات، وهي آيات عظيمة لا يقدر عليها أحد سوىٰ الله جل في علاه، ثم بين سبحانه أن هذه الآيات كانت تتبع بعضها بعضًا، وهي دلائل وعلامات واضحة تدل علىٰ إقامة الحجة؛ ومع ذلك فقد استكبروا وعاندوا ورفضوا الإيمان بالله؛ بسبب أنهم كانوا مصرين علىٰ الكفر ومجرمين؛ فعاقبهم الله علىٰ إجرامهم وفسقهم وكفرهم وضلالهم.

[١٣٤] ثم أخبر جل وعلا أن فرعون وقومه عندما كان يقع عليهم نوع من العذاب المذكور في الآية السابقة يذهبون في كل مرة إلىٰ موسىٰ ويقولون: ياموسىٰ ادع لنا ربك بما عُرِفَ منكم من صلاح أن يرفع عنّا العذاب، ونقسم لك في حال رُفع عنَّا العذاب سوف نؤمن بك وبما جئت به، وسوف نرسل معك بني إسرائيل.

[١٣٥] ثم بين جل وعلا أنه في كل مرة يستجيب دعاء موسىٰ عليه السلام ويكشف عنهم العذاب، ويستمر كشف العذاب عنهم إلىٰ الوقت الذي أُجِّل لهم؛ فإذا هم ينقضون العهود والمواثيق التي عاهدوا عليها موسىٰ عليه السلام، ولم يؤمنوا برسالته، ويستمرون علىٰ كفرهم وضلالهم وعنادهم.

[١٣٦] فلما جاء الوقت المحدد لإهلاك هؤلاء المجرمين أخبر جل وعلا بنهايتهم الأليمة؛ حيث انتقم منهم سبحانه وتعالىٰ؛ فسلب نعمتهم وأغرقهم في البحر، لأنهم جحدوا آيات الله، وكانوا بها غير متعظين ولا ممتثلين.

[١٣٧] ثم أخبر جل وعلا أنه أورث بني إسرائيل الذين كانوا مستضعفين من فرعون وقومه؛ أورثهم مشارق الأرض ومغاربها، وهي أرض مصر والشام التي بارك الله فيها؛ وأصبح لا منازع ولا قوة تمنعهم من الاستمتاع والإصلاح في تلك البلاد، ثم بين سبحانه أنَّ وَعْدَه تم لبني إسرائيل بالتمكين لهم بسبب صبرهم علىٰ أذىٰ فرعون وقومه، وبين سبحانه أنه دمر ما كان يصنع فرعون وقومه من البيوت والقصور، وما كانوا يبنون من عرائش الأعناب والأشجار والحدائق. ولكنَّ بني إسرائيل لم يشكروا نعمة الله عليهم؛ بل آذوا موسىٰ عليه السلام إيذاءً شديدًا.

ومن ذلك: أنهم لما نجَوْ من البحر الذي أُغرق فيه فرعون وقومه رأوا قومًا يعبدون غير الله؛ فقالوا: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف:١٣٨].

ومن ذلك أيضًا: أنه قال لهم: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة:٢١]، فرفضوا أمر نبيهم وقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة:٢٢]، فعاقبهم الله بالتيه كما قال تعالىٰ: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة:٢٦].

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ
عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا
لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ
مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ
أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم
مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ
أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ
مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ * وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً
وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ
مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ
سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ
رَبُّهُۥ ۚ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ
ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا
تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ
أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

[١٣٨] وبعد أن خرج موسىٰ ومعه بنو إسرائيل من مصر متجهين إلىٰ الأرض المقدسة تبعهم فرعون وجيشه لكي يعيدوهم إلىٰ أرض مصر، ولكن الله جل وعلا انتقم لهم فسهل لموسىٰ وبني اسرائيل تجاوز البحر، وأغرق فرعون وجيوشه - التي كانت تلاحقهم - بدوابهم ومعداتهم، ورأوا جثة فرعون علىٰ الساحل؛ حيث لفظها البحر بأمر الله؛ ليروا نهاية هذا الطاغية الذي ادَّعىٰ الألوهية، وبعد أن تجاوز بنو إسرائيل البحر أخبر سبحانه أنهم رأوا في طريقهم وهم ذاهبون إلىٰ الأرض المقدسة قومًا يعبدون الأصنام، فقالوا لموسىٰ: اجعل لنا إلهًا مثل هؤلاء، فرد عليهم موسىٰ موبخًا لهم: إنكم قوم تجهلون عظمة الله وقدرته، وهذا من أعظم الجهل، لأنه شرك وكفر بالله.

[١٣٩] ثم قال موسىٰ لبني إسرائيل: واعلموا ياقومي أن هؤلاء القوم العاكفين علىٰ عبادة هذه الأصنام متبر، أي: هالك ومدمر ما هم فيه من عبادة غير الله، وأن فعلهم هذا باطل؛ لأنهم يعبدون غير الله سبحانه، ومحكوم علىٰ عملهم هذا بالزوال، وسيظهر التوحيد وستصير العبادة لله وحده لا شريك له.

[١٤٠] ثم قال موسىٰ لبني إسرائيل علىٰ سبيل التعجب والإنكار مبينًا لهم فساد ما طلبوه وأن ما طلبوه هو شرك وكفر بالله، فقال: ياقومي هل تريدون أن أطلب لكم إلهًا غير الله تعبدوه؟ وأنتم تعلمون أن الله هو المألوه وحده، وأنه هو الذي خلقكم، وهو الذي أهلك عدوكم!!، وهو الذي اصطفاكم وفضلكم علىٰ عالمي زمانكم؟!.

[١٤١] ثم قال موسىٰ لبني إسرائيل: واذكروا ياقومي نعم الله عليكم؛ حيث أنجاكم من آل فرعون الذين ساموكم أشد العذاب؛ فكانوا يقتلون أبناءكم ويتركون نساءكم لخدمتهم، واعلموا أن ذلك العذاب كان اختبارًا وامتحانًا لكم من ربكم لتعتبروا وتتعظوا وتشكروا الله علىٰ نعمه وأفضاله عليكم.

بعد ذلك طلب منهم موسىٰ أن يدخلوا الأرض المقدسة فرفضوا وقالوا: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤]، ولذلك عاقبهم الله بالتيه؛ لأنهم قوم سوء، كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ [المائدة:٧٠].

[١٤٢] ثم أخبر جل وعلا أنه واعد موسىٰ عليه السلام قبل تكليمه ثلاثين ليلة لمناجاته، ثم زادها عشر ليالي لتصبح أربعين ليلة يتعبد فيها، لكي يكون متهيئًا ومستعدًّا للقاء الله؛ فتم ميقات الله لموسىٰ لتكليمه، ولما أراد موسىٰ أن يذهب للميقات الذي حدده الله لمكالمته وصَّىٰ أخاه هارون ليستخلفه علىٰ قومه حتىٰ يرجع، وطلب منه أن يقوم علىٰ شؤونهم بالعدل والرفق والإصلاح، وأن يَحْمِلَهُم علىٰ طاعة الله وعبادته، وحذَّره أن يسلك طريق المفسدين في الأرض.

ومعلوم أن هارون نبي، ولا شك أنه سوف يصلح، وهو مكرم؛ بل معصوم من أن يكون مفسدًا؛ فكيف يقول له موسىٰ: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾؟ فيفهم من هذا: أنه لا غنىٰ لأحد عن الوصية، وأنه يجب علىٰ كل أحد قبول النصح ممن جاءه به، كما قيل:

ولكل شخص شهوة أو غفلة والمرء محتاج إلىٰ التنبيه

[١٤٣] ولما جاء موسىٰ عليه السلام علىٰ الموعد كلمه الله مباشرة من وراء حجاب كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ﴾ [الشورىٰ:٥١]؛ ولهذا سُمِّي موسىٰ عليه السلام كليم الرحمن؛ لأن الله كلمه من غير الواسطة التي يبلغ بها الرسل أحكام الله، وهو جبريل عليه وعلىٰ رسل الله الصلاة والسلام.

ثم إن موسىٰ طمع في رؤية الله فطلب منه النظر إليه، فقال الله له: لن تقدر ياموسىٰ علىٰ رؤيتي في الدنيا، ولكن انظر إلىٰ الجبل فإن استقر مكانه إذا تجلىٰ الله له فسوف تراني، فلما تجلىٰ الله إلىٰ الجبل جعله دكًّا مستويًا بالأرض، فعندها سقط موسىٰ مغشيًا عليه؛ فلما أفاق قال: إني أنزِّهك يا ربي وأعظِّمك عما لا يليق بك، وإني تبت إليك، وأنا أول المصدقين بك المسلِّمين لك.

قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي
فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَتَبْنَا
لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ
شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُو۟رِيكُمْ
دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ
فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا
وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ
ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ
عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ
وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾
وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن
لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

[١٤٤] وبعد أن أفاق موسىٰ من صعقته قال له جل وعلا: ياموسىٰ إني اخترتك علىٰ الناس من أهل زمانك، برسالتي إلىٰ من أرسلتك إليهم، وبتكليمي إياك من غير واسطة؛ فخذ ياموسىٰ ما آتيتك من الأوامر والنواهي، وكن من الشاكرين لله علىٰ نعمه الظاهرة والباطنة، وعلىٰ ما آتاك من رسالته، وما خصك بكلامه.

[١٤٥] ثم أخبر جل وعلا أنه كتب لموسىٰ في ألواح التوراة كل شيء يحتاج إليه بنو إسرائيل من أمور الدين، لتكون موعظة تؤثر في قلوبهم، وتبيينًا للأوامر والنواهي وأحكام الحلال والحرام؛ ثم أمره الله أن يأخذ هذه الأحكام بجد وحزم، وأن يأمر قومه أن يأخذوا بأحسنها، أي: بأحسن الوجوه التي تفسر بها، ثم أخبر سبحانه علىٰ سبيل التهديد أن من خالف أمره سوف يريه منازل الفاسقين الذين سبقوهم كيف دمرها الله بسبب كفرهم وفسقهم وفجورهم.

[١٤٦] ثم أخبر جل وعلا أنه سوف يصرف عن دلائل قدرته وعظمته الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق بسبب فساد قلوبهم، ثم بين سبحانه أن هؤلاء الظالمين إذا رأوا أي آية دالة علىٰ أن الله هو الإله الحق الذي لا شريك له فإنهم لا يؤمنون بها، وإذا رأوا طريق الحق والهداية لا يتخذونه طريقًا، أما إذا رأوا طريق الضلال والكفر فإنهم يتخذونه طريقًا لهم يسيرون فيه، ثم بين سبحانه أن ذلك الانحراف عن دين الله وعن الهداية كان بسبب أنهم كذبوا بدلائل الله ومعجزاته بعد ظهورها واضحة، ولكنهم كانوا عنها لاهين غافلين.

[١٤٧] ثم أخبر جل وعلا أن الذين جحدوا بآيات الله وأنكروا لقاءه يوم القيامة؛ حبطت أعمالهم الخيرية من صدقة وصلة رحم ونحو ذلك، ولا يجزون يوم القيامة إلا بما كانوا يعملونه من الكفر والذنوب والمعاصي.

[١٤٨] وبعد أن ذهب موسىٰ لمناجاة ربه اتخذ قومه من بعده من ذهبهم وحليهم عجلًا صنعه السامري؛ حيث جَمَعَ الذهب الذي مع نساء بني إسرائيل اللاتي استعرنه من نساء قوم فرعون، ثم أذابه وصنع منه عجلًا له جسدٌ من الذهب، وله صوت يُسمع، وقال لهم السامري: ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ﴾ [طه:٨٨]، ، أي: أنهم جعلوا هذا العجل إلههم، ثم عبدوه من دون الله، ثم قال سبحانه علىٰ سبيل الإنكار: ألم ير هؤلاء الجهلة أن هذا العجل لا يكلمهم ولا يهديهم طريقًا؛ فكيف اتخذوه إلهًا يعبد من دون الله؟ ثم قال سبحانه منكرًا عليهم: إنهم اتخذوا هذا العجل إلهًا بدون أن يفكروا بعقولهم؛ فهم ظالمون لأنفسهم ولغيرهم ممن يقتدي بهم.

[١٤٩] ولما عادوا إلىٰ رشدهم وندموا علىٰ عبادة العجل بعد أن تبين لهم أنها عبادة باطلة، وتبين لهم أنهم قد ضلوا عن الطريق المستقيم، قالوا: لئن لم يتب علينا ربنا ويرحمنا برحمته التي وسعت كل شيء، ويتجاوز عن ذنوبنا؛ لنكونن من الهالكين الذين حبطت أعمالهم فخسروا دنياهم وآخرتهم.

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى
مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ
أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟
يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ
وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ
غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ
بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾
وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا
هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ
قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ
رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ
ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّا ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى
مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾

[١٥٠] ثم أخبر جل وعلا أن موسىٰ رجع إلىٰ قومه وهو في غاية الغضب والحزن؛ لأن الله أخبره بما صنع قومه في أثناء غيبته، فلما وصل موسىٰ والتقىٰ بقومه قال لهم: بئس الخلافة التي خلفتموني مِن بعدي؛ حيث تركتكم علىٰ توحيد الله وإخلاص العبادة له وحده، فهل استعجلتم تعاليم الله التي ستتم بمجيئي إليكم؟ ولما رأىٰ موسىٰ قومه وهم عاكفون علىٰ عبادة العجل، ألقىٰ ألواح التوراة التي بيده من شدة غضبه من فعلهم القبيح، وأمسك برأس أخيه يجره، فقال هارون مدافعًا عن نفسه بأسلوب الاستعطاف والترحم: يابن أمي: لقد بذلت جهدي في نصحهم ولكنهم استضعفوني؛ بل حاولوا أن يقتلوني، فلا تَسرَّ الأعداء بما تفعل بي، ولا تجعلني مثل هؤلاء القوم الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بعبادة العجل، وإني بريء منهم ومن فعلهم.

[١٥١] ولما تبين الأمر لموسىٰ وتأكد أن أخاه لم يفرط، وأنه كان معذورًا، ندم علىٰ ما فعله بأخيه، وقال: رب اغفر لي ما فعلته بأخي، واغفر لأخي فقد بذل ما يقدر عليه، وأدخلنا في سعة رحمتك فإنك أرحم الراحمين.

[١٥٢] ثم قال جل وعلا علىٰ سبيل التهديد والإنكار: إن الذين عبدوا العجل من بني إسرائيل، واتخذوه إلهًا من دون الله؛ سوف يصيبهم في الآخرة عذاب شديد من الله، وسوف تصيبهم كذلك الذلة والصغار في الحياة الدنيا، وبمثل هذا العقاب يُعَاقِبُ سبحانه كل من اتخذ إلهًا من دون الله.

[١٥٣] ثم فتح جل وعلا لعباده باب التوبة؛ فقال سبحانه: واعلموا أيها أناس أن الذين عملوا المعاصي والذنوب من شرك وكبائر وصغائر، ثم تابوا بعد تلك الأفعال السيئة، ورجعوا إلىٰ الله، وآمنوا به إيمانًا حقيقيًّا؛ فاعلموا أن الله جل شأنه من بعد هذه التوبة غفور لعباده التائبين، رحيم بهم.

[١٥٤] وحين سكن موسىٰ وهدأ من غضبه بعد أن تبين له عذر أخيه، وتوبة قومه من عبادة العجل؛ تراجع عما بدر منه، وأخذ الألواح التي ألقاها، ثم بين سبحانه أن هذه الألواح مشتملة علىٰ هداية ورحمة الناس الذين يخافون الله في سرهم وعلنهم، ويخشون عقابه في الدنيا والآخرة.

[١٥٥] وبعد أن تاب بنو إسرائيل، وعادوا إلىٰ عبادة الله وحده، اختار موسىٰ عليه السلام منهم سبعين رجلًا من أشراف قومه وخيارهم من الذين لم يعبدوا العجل، وذهب بهم إلىٰ الميقات الذي حدده الله لموسىٰ عليه السلام، ولما رأوا موسىٰ يكلم الله من وراء حجاب قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥]؛ فأخذتهم الرجفة فصعقوا وماتوا جميعًا؛ فلما رأىٰ موسىٰ ما حصل التجأ إلىٰ ربه بالدعاء، وقال: يارب لو أردت لأهلكتنا من قبل هذا الميقات وأنا معهم، فماذا أقول لبني إسرائيل عندما أرجع إليهم وقد أهلكت خيارهم؟، يارب أتهلكنا بسبب ما فعله السفهاء الجهلاء منا؟، وهو تحدّيهم لموسىٰ وقولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥]؛ وإن هذه الفتنة التي وقع فيها هؤلاء السفهاء اختبار وامتحان للناس، تضل بها من تشاء من خلقك، وتهدي بها من تشاء، أنت ولينا وناصرنا ومتولي جميع أمورنا، فاغفر لنا ذنوبنا وارحمنا برحمتك الواسعة التي وسعت كل شيء، إنك خير من غفر الذنوب ورحم العباد، فأحياهم سبحانه من بعد موتهم إكرامًا لنبيه موسىٰ عليه السلام.

* وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ
إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى
وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ
فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ
عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ
ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ
عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟
ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾
قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى
لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ
فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ
وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمِن
قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

[١٥٦] واستمر موسىٰ عليه السلام في دعائه فقال: وقدِّر لنا ياربنا في هذه الدنيا حياة سعيدة نهنأ بها، وفي الآخرة جنة نسعد بها، فإنا قد تبنا ورجعنا إليك، فقال الله سبحانه مجيبًا: اعلم ياموسىٰ أن عذابي أصيب به من أشاء من عبادي، وأن رحمتي وسعت كل شيء، ولن ينالها في الآخرة إلا الذين يخافون ربهم باجتناب الذنوب والمعاصي، ويؤتون الزكاة المفروضة عليهم، ويؤمنون بآياتي ويعملون بما فيها من الأوامر والنواهي.

[١٥٧] ثم تفضل جل وعلا بإيضاح أولئك الذين يتقون الله ويؤتون الزكاة ويؤمنون بآيات الله؛ فأخبر أنهم الذين يتبعون النبي الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، وهو محمد ﷺ الذي يجد أهل الكتاب صفته مكتوبة عندهم في التوراة والإنجيل، وهذا النبي يأمرهم بالتوحيد وجميع الطاعات، وينهاهم عن الشرك وجميع المعاصي، ويحل لهم الطيبات من المأكل والمشرب، ويحرم عليهم الخبائث، ويرفع عنهم الآصار والأغلال الشاقة التي فرضت عليهم؛ ثم بين سبحانه أن الذين آمنوا بالنبي محمد ﷺ وصدقوه ووقروه ونصروه، واتبعوا القرآن الذي أنزله الله عليه، فأولئك هم الفائزون بوعد الله لعباده المؤمنين بجنة عرضها السماوات والأرض.

وهذه الآية والتي بعدها من الآيات تثبت أنَّ رسالة محمد ﷺ للثقلين جميعًا الإنس والجن، وأنها خاتمة الرسالات.

[١٥٨] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول للناس: اعلموا أيها الناس أني أُرسلت إليكم من عند الله الذي له ملك جميع من في السماوات والأرض، وأنه لا إله إلا هو، ولا معبود بحق إلا هو، له القدرة البالغة، يحيي ويميت، فعليكم الإيمان به وبرسوله النبي الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب، والذي يؤمن بالله ربًّا وإلهًا، ويؤمن بكلماته الشرعية، فاتَّبِعُوه لعلكم تَرْشُدُون.

وأمِّيته ﷺ كمال له لتثبت أن كل ما يأتي به من تعاليم هي من عند الله.

[١٥٩] وبعد أن أخبر جل وعلا عن الضالين والمنحرفين من بني إسرائيل، أخبر أن من قوم موسىٰ عليه السلام جماعة بقوا علىٰ الدين الصحيح يهدون الناس بالحق، ويعدلون في تنفيذ الأحكام، وهذا بيان لحالهم قبل مجيء رسالة محمد ﷺ.

وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ
مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ
فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ
مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ
ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا
ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾
وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا
حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا
نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ
﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ
لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟
يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ
حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ ۘ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ
حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ
كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

[١٦٠] يخبر جل وعلا أنه قسم بني إسرائيل فجعلهم اثنتي عشرة فرقة، وهم عدد أبناء يعقوب عليه السلام، ولما طلب بنو إسرائيل من موسىٰ السقيا بعد أن اشتد بهم العطش أوحىٰ سبحانه لموسىٰ أن يضرب بعصاه الحجر؛ فضربه فانبجست، أي: انفجرت منه اثنتا عشرة عينًا بعدد الفرق المذكورة، ثم علمت كل فرقة عينها الخاصة بها التي ستشرب منها، حتىٰ لا يتعدىٰ بعضهم علىٰ بعض، ثم منَّ الله علىٰ بني إسرائيل بنعمة أخرىٰ؛ حيث سخَّر السحاب ليظلهم ويسترهم من حر الشمس، ويسير معهم حيث ساروا، وكذلك منَّ الله عليهم بنعمة أخرىٰ؛ حيث أنزل عليهم المنَّ وهو طعام حلو لذيذ، وأنزل عليهم السلوىٰ وهو طير لذيذ اللحم، ثم قال الله لهم: كلوا من هذه الطيبات التي هي من رزق الله، واشكروه سبحانه عليها، ثم بين جل في علاه أنهم ما ظلموا الله حيث لم يشكروه، ولكن ظلموا أنفسهم لأنهم عرضوها لعذاب الله الأليم.

[١٦١] واذكر يانبي الله يوم أن قال الله لبني إسرائيل: ادخلوا بيت المقدس واسكنوا فيه، وكلوا مما أحل الله لكم من ثماره وحبوبه ونباته أين شئتم ومتىٰ شئتم، وقولوا حين تدخلون الباب: حطَّ عنا يارب خطايانا، وادخلوا خاضعين متذللين لربكم؛ فإن فعلتم ذلك غفر الله لكم خطاياكم وسيئاتكم، ومن كان منكم محسنًا سنزيده إحسانًا من خيري الدنيا والآخرة.

[١٦٢] ثم أخبر جل وعلا أن بعض بني إسرائيل الظالمين بدلوا وغيروا؛ ومن ذلك أنهم دخلوا الباب وهم يزحفون كلًّا علىٰ استه، وقالوا: (حبة في شعيرة) بدل أن يقولوا: ﴿حِطَّةٌ﴾، أي: حط عنا خطايانا، وهي طلب المغفرة، كل ذلك سخرية منهم واستهزاء بأمر الله، لذا أرسل الله عليهم عذابًا شديدًا من السماء بسبب ظلمهم وعصيانهم ومخالفتهم أمر الله وتجاوزهم حدوده.

[١٦٣] ثم طلب جل وعلا من النبي ﷺ أن يسأل اليهود عن تلك القرية التي كانت علىٰ شاطئ البحر؛ حيث ابتلاهم الله بأن جعل الأسماك تختفي من شاطئهم طوال الأسبوع ما عدا يوم السبت، وهو يوم محرم عليهم فيه الصيد؛ لأنه يوم عيد عندهم؛ فكانوا يحتالون فيضعون حفرًا وشباكًا فإذا جاءت الأسماك والحيتان في يوم السبت وقعت في هذه الحفر والشباك، ثم لا تستطيع الخروج منها، ثم يأتون في اليوم الذي بعده وهو يوم الأحد فيأخذونها احتيالًا.

واعلموا أن الله ابتلىٰ هؤلاء اليهود بمثل هذا الابتلاء لينالهم عقابه وعذابه؛ بسبب فسقهم وفجورهم، وتعديهم لحدود الله، وتحايلهم علىٰ شرعه الحكيم.

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ
عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾
فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ
وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾
فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾
وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ
سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ
دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ
يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن
يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ
أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ
خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ
بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾

[١٦٤] وحيث كان هناك جماعة صالحون من اليهود قاموا بنصح هؤلاء الذين احتالوا علىٰ شرع الله، وحاولوا إرشادهم وهدايتهم فلم يفلحوا؛ قام بعض الرجال الصالحين يلومون زملاءهم الناصحين فقالوا لهم: لماذا تنصحون هؤلاء المحتالين الذين تمردوا علىٰ التعاليم؟، فإن نُصْحَهُمْ لا جدوىٰ منه؛ فاتركوهم يلاقوا مصيرهم المكتوب عليهم إما بإهلاك الله لهم، أو أن يعذبهم عذابًا شديدًا؛ فقال الناصحون ردًّ علىٰ هؤلاء: لقد نصحناهم حتىٰ نعذر أمام الله، ولعلهم يتذكرون بهذه النصيحة فيخافون الله ويتوبون إليه.

[١٦٥] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المتمردين لمَّا تَرَكُوا ما وُعِظُوا به حلّت بهم العقوبة، وكانت النتيجة أن الله سبحانه أنجىٰ الناصحين، أما الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والعصيان فقد أخذهم الله بعذاب شديد بسبب استمرارهم علىٰ الفسق والفجور وتجاوزهم لحدود الله.

أما الذين امتنعوا عن الأمر بالمعروف فلم يذكر جل وعلا نجاتهم، فربما عوقبوا معهم، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [الأنفال:٢٥]، وبهذا يفهم أن النصح سبب للنجاة ولو أيس الناصح من المنصوح.

[١٦٦] ثم أخبر جل وعلا أن هؤلاء المجرمين لمَّا أصروا واستمروا في طغيانهم وعنادهم واستكبارهم عما نهوا عنه من صيد السمك يوم السبت، أمر الله أن يكونوا قردة، فانقلبوا بإذن الله قردة ممسوخين.

قال بعض العلماء: إن الممسوخين لا يتوالدون، ولذا فإن قول العامة لليهود: أبناء القردة والخنازير لا مستند له.

[١٦٧] واذكر يانبي الله يوم أن صرح ربك وأوجب علىٰ نفسه أنه سوف يرسل علىٰ اليهود من يذيقهم سوء العذاب إلىٰ يوم القيامة بسبب كفرهم وإجرامهم، وانتهاكهم لحرمات الله، وإفسادهم في الأرض، ثم بين سبحانه أن عقابه سريع لمن أساء وظلم، وأنه واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وآمن وعمل عملًا صالحًا وأناب.

[١٦٨] ثم أخبر جل وعلا أنه فرَّق بني إسرائيل في الأرض طوائف وأممًا، ومزقهم شر ممزق بسبب كفرهم وجحودهم، ثم بين سبحانه أن من هؤلاء اليهود أناسًا صالحين وهم قليلون، وأن منهم أناسًا ظالمين لأنفسهم وهم السواد الأعظم والكثرة الغالبة، ثم أخبر سبحانه أنه اختبرهم تارة برغد العيش والنعم الكثيرة، وتارة بالشدة والمصائب والأمراض؛ رجاء أن يرجعوا إلىٰ ربهم فيؤمنوا به ويطيعوه، ويتركوا ما نهوا عنه من الذنوب والمعاصي.

[١٦٩] وبعد أن أخبر جل وعلا عن هؤلاء المذكورين في الآية السابقة الذين فيهم الصالحون والطالحون؛ أخبر أنه جاء من بعدهم قوم ورثوا التوراة عن آبائهم وأجدادهم، وهؤلاء من صفاتهم السيئة أنهم يأخذون الرشاوىٰ ويأكلون الحرام، ومع ذلك فإنهم يقولون بكل وقاحة: إن الله سيغفر لنا لأننا من نسل الأنبياء، ثم أخبر سبحانه أنهم كلما لاح لهم شيء من حطام الدنيا فإنهم يأخذونه؛ سواء كان من الحلال أو الحرام؛ ثم أنكر سبحانه عليهم فقال علىٰ سبيل التذكير والتوضيح: ألم يؤخذ عليكم أيها اليهود العهد والميثاق من التوراة أن لا تقولوا علىٰ الله إلا الحق؟، وقد قرأتم التوراة وعرفتم ما فيها من الأحكام؛ واعلموا أن الدار الآخرة خير للذين يخافون الله فلا يعصونه، أفلا تعقلون ذلك فتنتهون عن أكل الحرام؟.

[١٧٠] واعلموا أيها الناس أن الذين يتمسكون بكتاب الله فيحلون حلاله ويحرمون حرامه، ويقيمون الصلاة بالمحافظة علىٰ أوقاتها وأركانها وواجباتها وسننها؛ فهؤلاء لن يضيع الله أجرهم جزاء إصلاحهم وصلاحهم.

۞ وَإِذۡ نَتَقۡنَا ٱلۡجَبَلَ فَوۡقَهُمۡ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ
خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٧١
وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ
عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ
ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا
بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ١٧٣ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ وَلَعَلَّهُمۡ
يَرۡجِعُونَ ١٧٤ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ
مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا
لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ
كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ
يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ
ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٧٧ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ
فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٧٨

[١٧١] واذكر يانبي الله وذكِّر بني إسرائيل يوم أن رفع الله الجبل فوق رؤوس آبائهم فصار فوقهم مثل الظُّلة تظلهم؛ حتىٰ ظنوا أنه واقع عليهم؛ ليريهم سبحانه آية من الآيات التي تدل علىٰ قدرته سبحانه، وعلىٰ صدق موسىٰ عليه السلام، ثم قال جل شأنه آمرًا لهم: اعملوا يا بني إسرائيل بما عُهِدَ إليكم من أحكام التوراة بكل جد واجتهاد، ولا تنسوا ما التزمتم به لعلكم تتقون الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه وغضبه.

[١٧٢] واذكر يانبي الله للناس حين أخرج الله ذرية آدم من أصلاب آبائهم، وقررهم بإثبات الربوبية والتوحيد لله؛ فأقروا له بذلك، قال الجمهور: أي: أخذهم من ظهر آدم وأقرهم بلسان الحال والمقال، أما ابن تيمية وابن القيم وغيرهم من السلف فقالوا: أخذهم من ظهور آبائهم وأقرهم بلسان المقال، ثم أخبر سبحانه أنه أقرهم حتىٰ لا ينكروا يوم القيامة ويزعموا أن الحجة لم تقم عليهم؛ وليس عندهم علم بذلك، وأنهم كانوا عن ذلك غافلين لاهين.

والمقصود من أخذ العهد عليهم حتىٰ لا يحتجوا بأن أخذ العهد كان علىٰ آدم فلا يشملهم ولا يلزمهم.

هذه الآية تسمىٰ: آية الميثاق.

قال الشيخ الشعراوي: إن كل شخص أصله جزء حي من أبيه آدم منذ أن نُفخت في آدم الروح، فكل واحد من الأحياء تنقَّل أصله حيًّا في أصلاب آبائه؛ حتىٰ انتقل حيوانًا منويًّا إلىٰ رحم أمه، وهذا هو الذي أُخذ عليه العهد، وهذا هو الذي لم يَجْرِ عليه موت منذ أن أحيا الله آدم.

وقد قرأت فتوىٰ صادرة عن اللجنة الدائمة للإفتاء في السعودية[1]:

يقول السؤال: هل نفهم من نفخ الروح في الجنين بعد أربعة أشهر أن الحيوان المنوي المتحد ببيضة المرأة والذي يتكون الجنين منه لا روح فيه؟، أو ماذا؟

فأجابت اللجنة: لكل من الحيوان المنوي وبويضة المرأة حياةٌ تناسبه إذا سلم من الآفات، وتهيأ كل منهما بإذن الله وتقديره للاتحاد بالآخر، وعند ذلك يتكون الجنين إن شاء الله ذلك، ويكون حيًّا أيضًا حياة تناسبه، حياة النمو والتنقل في الأطوار المعروفة، فإذا نفخ فيه الروح سرت فيه حياة أخرىٰ بإذن الله اللطيف الخبير.

[١٧٣] ثم بين جل وعلا سببًا آخر لإشهاد بني آدم، حتىٰ لا يقولوا: ياربنا نحن ما أشركنا، وإنما آباؤنا هم الذين أشركوا، ونحن ذرية جئنا من بعدهم فقلدناهم وتبعناهم في باطلهم؛ فهل تعذبنا بما فعل آباؤنا وأجدادنا من قبلنا من الأعمال الشركية والكفرية الباطلة؟.

والمقصود من هذا كله أن لا تكون لأحد حجة علىٰ الله.

[١٧٤] واعلموا أيها الناس أن بمثل هذا التفصيل في دلائل قدرة الله ووحدانيته بيَّن جل وعلا آياته ووضح أحكامه ليتدبرها الناس لعلهم يتقون الله فيرجعون عمَّا هم فيه من الشرك والكفر والضلال والمعاصي.

[١٧٥] واقصص يانبي الله علىٰ الناس وعلىٰ اليهود قصة ذلك الرجل من بني إسرائيل؛ الذي آتاه الله علمًا كثيرًا من علم التوراة، ولكنه بسبب إغراءات المال والمنصب كفر بآيات الله وانسلخ منها كانسلاخ الجلد عن الشاة؛ فلما انسلخ من آيات الله تسلط عليه الشيطان حتىٰ صار قرينًا له، وصار من الضالين الراسخين في الضلال الذين يضلون عباد الله.

[١٧٦] ثم أخبر جل وعلا أنه لو شاء لرفع هذا الرجل بهذه الآيات، ولكنه اختار الضلال فمال إلىٰ الدنيا وسكن إليها، واتَّبع هواه، ثم بين سبحانه أن حال هذا الرجل كحال الكلب إن طردته وضربته يلهث، وإن تركته يلهث، وهكذا هذا الرجل إن نهيته عن الذنب لم ينته، وإن تركته لم يهتد، واعلموا أن هذا المثل السيِّء هو مثل كل من جحد آيات الله وكذب بها، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقص علىٰ الناس مثل هذه القصص النافعة التي أوحاها الله إليه؛ لعلها تكون سببًا في تفكرهم واتعاظهم وزجرهم عمَّا هم فيه من الكفر والضلال.

[١٧٧] ثم قال جل وعلا: لقد قبحت أشد القبح صفة أولئك القوم الذين كذبوا بآياتنا وجحدوا بها، وهم بهذا التكذيب وهذا الجحود ظلموا أنفسهم؛ لأنهم عرضوها لعذاب الله الشديد.

[١٧٨] ثم أخبر جل وعلا أن من رغب بالهداية وأحبها هداه الله ووفقه للإيمان، ومن أصرّ علىٰ الغواية والضلال فهو من الخاسرين الهالكين.

واعلموا أن إضلال الله للعبد هو إضلال جزائيٌّ، وليس إضلالًا ابتدائيًّا؛ لأنه لمّا زاغ عن الحق تركه الله وما اختار لنفسه.

(١) انظر: مجلة البحوث الإسلامية العدد ٣١ الصادر عام ١٤١١هـ فتوىٰ صادرة من اللجنة الدائمة للإفتاء في السعودية برئاسة الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله رقم الفتوىٰ (٢٦١٢).

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ
بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ
أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ
الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ
سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ
وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم
مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ
يَتَفَكَّرُوا ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾
أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ
مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ
بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ۚ وَيَذَرُهُمْ
فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ
قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ
قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

[١٧٩] اللام في قوله: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾، هي لام العاقبة، أو كما قال الدكتور محمد راتب النابلسي: لام المآل، كما قال في قوله تعالىٰ: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص:٨]، فاللام في قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾: هي لام العاقبة، وذلك لأنهم التقطوا موسىٰ من البحر لينفعهم أو يتخذوه ولدًا، لكن مآل الأمر وعاقبته هي أن موسىٰ قضىٰ علىٰ ملكهم، وإيضاح ذلك أن الله تعالىٰ قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء:٤٠]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ [يونس:٤٤].

وعلىٰ هذا فيكون معنىٰ هذه الآية: أن الله خلق الثقلين الجن والإنس علىٰ الفطرة، وعرض عليهم الأمانة وهي التكاليف الشرعية فاختاروها والتزموا بها، ولما جاء التطبيق والعمل التزم قلة من الإنس والجن بهذه التكاليف، أما الكثرة فلم يلتزموا بها، فكان مصيرهم جهنم وبئس المصير.

ثم بين سبحانه الصفات التي أدت بهم إلىٰ هذا المصير السيِّيء؛ فأخبر أن لهم قلوبًا لا يعقلون بها آيات الله، ولهم أعين لا ينظرون بها ما في هذا الكون من دلائل قدرته، ولهم آذان لا يسمعون بها آيات الله سماع تدبر، والمقصود: أن هذه القوىٰ التي منحها الله لهم لم يستعملوها في الخير، كما قال تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم:٧].

ثم بين سبحانه أن هؤلاء الموصوفين بهذه الصفات هم كالبهائم التي لا تفهم ما يقال لها، ولا تعقل بقلوبها؛ بل هم أضل منها؛ ثم وصفهم سبحانه أنهم هم الغافلون عن الإيمان بالله وطاعته.

[١٨٠] يخبر جل وعلا أن له الأسماء الحسنىٰ، التي يجب أن ندعوه بها، وأن نثني عليه بها، وأسماء الله نوعان: أسماء إجلال، وأسماء جمال، ثم أمر سبحانه أن نترك الذين يحرفون أسماءه، وأخبر أنه سوف يجازيهم علىٰ أعمالهم القبيحة.

ويدخل في هؤلاء -الذين هددهم الله- المؤولون والمحرفون لأسمائه بغير دليل شرعي.

[١٨١-١٨٢-١٨٣] ثم أثنىٰ جل وعلا علىٰ أمة محمد ﷺ؛ فأخبر أن من بعض الناس الذين خلقهم جماعة متمسكون بشرع الله، ويدعون الناس إليه، ويعدلون بين الناس في أحكامهم. ثم أخبر جل وعلا أن الذين جحدوا آيات الله الواضحة البينة سوف يستدرجهم من حيث لا يعلمون؛ بأن يُوسع لهم في الأرزاق وسبل العيش في الدنيا. ثم أخبر جل وعلا أنه سوف يمهل هؤلاء المجرمين المكذبين فترة من الزمن، حتىٰ يظنوا أنهم لن يعاقبوا، ثم يأخذهم سبحانه بالعذاب الشديد الذي لا يرد.

[١٨٤] ثم أمر جل وعلا هؤلاء الكفار أن يتفكروا بعقولهم: هل هذا الرجل الذي أرسل إليهم -وهو محمد ﷺ- به جنون؟ في حين أنهم يعرفونه حق المعرفة، ويعرفون أنه أكمل الناس عقلًا، ثم بين سبحانه بأن محمدًا ﷺ ما هو إلا نذير لهم ينذرهم من عذاب يوم أليم إن هم استمروا في كفرهم وضلالهم.

[١٨٥] ثم أمر جل وعلا هؤلاء المكذبين أن ينظروا في ملكوت السماوات والأرض، وفي ما خلق الله من كل شيء؛ نظر استدلال واعتبار، ليتبين لهم صدق هذا النبي المرسل إليهم، وينظروا كذلك في آجالهم قبل أن يفاجئهم الموت فيهلكوا علىٰ الكفر والضلال، ويصيروا إلىٰ عذاب الله وأليم عقابه؛ فإذا لم يهتدوا بهذا القرآن مع وضوح الآيات والبراهين فبماذا يهتدون؟ فهم أصروا علىٰ الكفر والضلال فثبتهم الله علىٰ ما اختاروا.

[١٨٦] ثم بين جل وعلا أن من لم يوفقه الله للهداية وأصرّ علىٰ الكفر فطبع الله علىٰ قلبه فمن يهديه من بعد الله؟! والجواب: لا أحد؛ بل يتركهم الله في كفرهم وضلالهم متحيرين مترددين في الضلال، ولا شك أن طبع الله علىٰ قلوبهم هو طبع جزائي وليس ابتدائي، أي: أنهم أصروا علىٰ الكفر فثبتهم عليه فإضلال الله لهم هو إضلال جزائي وليس ابتدائي.

[١٨٧] ثم أخبر جل وعلا عن سؤال اليهود للنبي ﷺ عن يوم القيامة، فأمره أن يقول لهم: اعلموا أن علم وقتها عند ربي وحده، لا يظهرها إلا هو، وقد عظم أمرها في السماوات والأرض، ولن تأتي إلا فجأة، واعلم يانبي الله أنهم يسألونك عن هذا السؤال وكأنك مُلِحٌّ في البحث عنها، فقل لهم: إن علمها عند ربي، ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن ذلك من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله.

قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ
أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ
إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨ ۞ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم
مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ فَلَمَّا
تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتۡ حَمۡلًا خَفِيفٗا فَمَرَّتۡ بِهِۦۖ فَلَمَّآ أَثۡقَلَت دَّعَوَا
ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩
فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى
ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠ أَيُشۡرِكُونَ مَا لَا يَخۡلُقُ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ
١٩١ وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢
وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ
أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ ١٩٣ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ
أَمۡثَالُكُمۡۖ فَٱدۡعُوهُمۡ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ إِن كُنتُمۡ
صَٰدِقِينَ ١٩٤ أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ
بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ
بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥

[١٨٨] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين المكذبين: إن الأمور كلها بيد الله وحده، وإني لا أقدر علىٰ جلب النفع لنفسي، ولا دفع الضر عني، إلا بمشيئة الله تعالىٰ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير ودفعت عن نفسي الشرور المصائب، وما أصابني فقر أو مرض أو غيره؛ لأنني سأحترز منه لو علمت، وما أنا إلا نذير للكافرين الضالين من عذاب النار، وبشير للمؤمنين الصادقين بجنة عرضها السماوات والأرض.

[١٨٩-١٩٠] يحكي جل وعلا في هذه الآية قصة الخلق الأول، فأخبر سبحانه أنه هو الذي خلق الناس من نفس واحدة وهو آدم أبو البشر عليه السلام، ثم خلق منها زوجها وهي حواء ليأنس بها ويسكن إليها ولتتوالد منهما البشرية، فلما جامعها حملت حملًا خفيفًا لم تشعر به، ومع استمرار الحمل وَكِبَرِ بطنها وشعورها به دعوا الله لئن جعله ولدًا صالحًا ليكونن من الشاكرين الله علىٰ ما وهب لهما من الولد؛ فلما رزقهما الله ولدًا صالحًا، وتناسلوا جيلًا بعد جيل؛ جاءوا في عهد نوح عليه السلام وبعده فجعلوا لله شركاء فيما آتاهم؛ بأن سموا الأبناء عبدالحارث وعبدالعزىٰ وعبديغوث، ونحو ذلك مما فعله أهل الشرك والكفر والضلال؛ فتعالىٰ الله سبحانه وتنزه عن شركهم وكفرهم وضلالهم.

والمقصود: أنه في عهد آدم؛ بل القرون الأولىٰ لم يحصل فيها شرك، وإنما حصل ذلك في أحفاد الأحفاد.

[١٩١] ثم أنكر جل وعلا علىٰ هؤلاء الضالين الذين أشركوا بالله وعبدوا معه غيره، من الأصنام والأوثان، فقال سبحانه علىٰ سبيل الإنكار: كيف تعبدون هذه الأصنام التي لا تقدر أن تخلق شيئًا؛ بل هي أصلًا مخلوق من مخلوقات الله.

[١٩٢] ثم بين جل وعلا أن هذه الأصنام والأوثان التي عبدها هؤلاء المشركون لا تستطيع نصر الذين يعبدونها؛ بل لا تستطيع نصر نفسها إذا اعْتُدِيَ عليها.

[١٩٣] ثم بين جل وعلا أيضًا أن هذه الأصنام والأوثان التي عبدها هؤلاء المشركون إذا دعوها إلىٰ الهدىٰ والرشاد فإنها لا تتبعهم؛ سواء دعوها أو لم يدعوها.

[١٩٤] واعلموا أيها المشركون أن هذه الآلهة التي تعبدونها من دون الله خَلْقٌ من خلق الله أمثالكم؛ بل أنتم أفضل منهم؛ لأن الله خلق لكم أدوات الفهم والمعرفة، وهي السمع والبصر والفؤاد والعقل، أما هذه الآلهة فهي جمادات لا تعقل ولا تفهم؛ فإذا كنتم مُصِرّون أنها آلهة حقًّا فادعوهم لكي يستجيبوا لكم إن كنتم صادقين في دعواكم أنها آلهة، ولن يفعلوا.

[١٩٥] ثم سأل جل وعلا علىٰ سبيل الإنكار: هل لهذه الأصنام أرجل يمشون بها فتقضي حاجاتكم؟ أو لهم أيد يدفعون بها الضرّ عنكم؟ أو لهم أعين ينظرون بها فيعرِّفونكم ما خفي عنكم؟ أو لهم آذان يسمعون بها فيخبرونكم بما لم تسمعوه؟، فإذا كانت هذه الجمادات لا تملك هذه الأدوات فلماذا تعبدونها، ثم أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء الكفار: ادعوا أيها الكفار آلهتكم واستعينوا بها علىٰ إيقاع الهلاك والضرر بي، من دون إمهال أو تأخير، واعلموا أنكم لن تستطيعوا الإضرار بي لأن الحافظ هو الله وحده، وهو الإله الحق سبحانه.

إِنَّ وَلِيِّۦَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ ﴿١٩٧﴾ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ﴿٢٠٦﴾

[١٩٦] يأمر جل وعلا رسوله ﷺ أن يقول لهؤلاء الضالين: اعلموا أيها الكفار أن وليي الله الذي يتولىٰ أموري، وهو الذي نزَّل عليَّ هذا القرآن العظيم، وإن ولايته ليست خاصة بي؛ بل إن ولايته تعم الصالحين من عباده، بأن يحفظهم ويرحمهم؛ فنعم المولىٰ ونعم النصير.

[١٩٧-١٩٨] واعلموا أيها المشركون أن هذه الأصنام التي تعبدونها من دون الله ليس لها استطاعة ولا اقتدار علىٰ نصرتكم؛ بل ليس لها قدرة علىٰ نصر ذاتها. والدليل علىٰ ذلك أنكم لو دعوتم هذه الأصنام إلىٰ الهدىٰ والرشاد فإنها لا تستجيب لكم؛ لأنها جمادات، ثم ترون هذه الأصنام تنظر إليكم، وهم لا يبصرون في الحقيقة؛ لأنها صور مجسمة.

[١٩٩] يأمر جل وعلا نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق فيقول له: تلطف يامحمد في معاملة الناس وتعامل معهم بالعفو والحلم والصفح، وأْمُرْهم بالأفعال الحسنة، وأعرض عن الجاهلين.

مع أنه ﷺ علىٰ خلق عظيم؛ ولكن المقصود: أن يتحلىٰ الدعاة خصوصًا والجميع عمومًا بالأخلاق الفاضلة.

[٢٠٠] يأمر جل وعلا إذا تعرَّض الشيطان لأحد بوسوسة؛ فعليه أن يستجير بالله ويلجأ إليه لكي يبعده عنه، فإن الله سميع لأقوالكم عليم بأحوالكم، مجيب لمن استجار به.

[٢٠١] ثم بين جل وعلا أن الذين يخافون الله فيعملون بأوامره ويجتنبون نواهيه، إذا مسّتهم الوساوس والشكوك التي يلقيها الشيطان علىٰ نفس المؤمن؛ سواء كانت هذه الشكوك في الله، أو في الرسول ﷺ، أو غير ذلك من الوساوس التي تكدِّر علىٰ الإنسان نفسه، تذكروا ما أوجب الله عليهم من الطاعات والبعد عن المعاصي والمنكرات، ولجأوا إليه سبحانه واستعاذوا به من الشيطان الرجيم؛ فإذا هم مبصرون لخطئهم ومحبطون لكيد الشيطان.

[٢٠٢] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء الشياطين يعاونون إخوانهم من الكفار والمشركين من الجن والإنس في الغي والضلال والفساد، ثم لا يدخر هؤلاء الكفار وسعًا في فعل الشر ونشره.

[٢٠٣] ثم أخبر جل وعلا أن الكفار طلبوا من الرسول ﷺ أن يأتيهم بآية؛ أي أنهم طلبوا أمورًا تعجيزية، فإذا لم يأتهم بها قالوا له: إنك اخترتها من عند نفسك، فرد عليهم الرسول ﷺ قائلًا: إنه لا يجوز لي أن أختلق شيئًا من تلقاء نفسي؛ إنما أنا متبع لما يوحي إليَّ من عند الله، واعلموا أيها الكفار أن هذا القرآن الذي أتلوه عليكم إنما هو حجج وبراهين من الله، وأنه هدىٰ ورحمة لمن آمن بالله ورسوله.

[٢٠٤] ثم أمر جل وعلا عباده المؤمنين إذا تُلِيَ عليهم القرآن أن يصغوا إليه ويستمعوا له ويتدبروا معانيه، ولعلكم أيها الناس بهذا الاستماع والتدبر تفوزوا برحمة رب العالمين.

[٢٠٥] ثم أمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يذكر الله في نفسه، وهو متواضع خاشع خائف، لأن الذكر طرد للغفلة وإبعاد للوسوسة؛ لأن النفس إذا لم تُشغلها بالخير انشغلت بغير ذلك، ثم أمره سبحانه وتعالىٰ أن يكون صوته في الذكر والدعاء وسطًا، فلا يكون عاليًا يوقظ النائم ويزعج المصلي، ولا يكون منخفضًا بحيث لا يسمع نفسه، وأمره أن يذكر الله في أول النهار وآخره، كما أمره أن لا يكون من الذين يغفلون عن ذكره لانشغالهم في أمور حياتهم الدنيوية.

[٢٠٦] واعلموا أيها الناس أن الذين عند الله من الملائكة المقربين، وحملة العرش وغيرهم؛ يذعنون لأوامر الله ولا يستكبرون عن عبادته، وأنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون عن عبادته، ويسجدون له وحده لا شريك له.